قَوارِبُ الأمل

هروب من جحيم الوطن

رواية

عبالله انوينة

الكتاب: قوارب الأمل ـ هروب من جحيم الوطن ـ
المؤلف: عبدالله انوينة
الطبعة الأولى: 2020
ISBN: 978-91-89273-74-0
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 00-19-29-11-2020
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، ڤاسترا جوتالند.
هاتف: 0046790185518
البريد الإلكتروني:
digitizethearabicbook@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة لدى دار رقمنة الكتاب العربي-ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

الإهداء

إلى من درست القانون في بلد لا يحكمه قانون
فركبت قوارب الموت هربًا من الموت.
فتلقّتها رصاصَاتُ البحريّة الملكيّة وقتلت أحلامها وسط البحر
دون شفقة
دون اعتبار
إلى روح "شهيدة الهجرة" حياة بلقاسم.
إلى روح الطفلة الشهيدة سامية يوسف التي خطفها البحر قبل أن تحقق حلمها الوحيد.
إلى جميع شهداء الهجرة الذين ماتوا غرقًا في البحر.
إلى ملك البلاد محمد السادس.

« وقت انطلاق الرحلة: حسب حالة البحر.

وقت الوصول: مجهول.

نسبة النجاح: ١%

نسبة الأمل: ٩٩%

عدد الركاب: بالآلاف كلهم شباب.

وسيلة الرحلة: أي شيء يطفو فوق الماء.

سبب الرحلة: ظلم الوطن.

ثمن الرحلة: حياتنا.

الوجهة: أحد شواطئ أوروبا »
بتصرف

كانت "حياة" تبحث فقط عن حياة في البحر

خارج هذا الوطن الذي هُجِر

إلى سمك

إلى سجن

إلى قهر

فأطلقتم عليها الرصاصات

وكالعادة ليس لديكم تكلفة لحياتنا

وللأحياء

ولحياة

لكن لديكم تكلفة القبر

وتكلفة كل الأموات.

جزء من قصيدة بعنوان "كانت تأمل فقط في الحياة" كتبتها زهرة الطاهري إلى روح الشهيدة حياة بلقاسم التي قتلتها البحرية الملكية وهي على متن قارب مطاطي في اتجاه أوروبا.

الفصل الأول

الهاتف يرن؛

الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا، صوت الرعد يهز المكان والشتاء خيط من السماء..

- مرحبا، عبدالله انوينة ؟؟
- نعم، هو ذا.
سأتصل بكَ على السّاعة الرابعة زوالا، ويجب أن تكون حينها في مدينة القنيطرة، إذا وجدت معك شخصا آخر من غير مجموعتك "ب" ينتهي كل شيء. مفهوم؟!
- مفهوم.

أُقفل الخط وتلاشت تلك الشجاعة التي تسكنني وحلّ محلها خوفٌ رهيب. تساءلت: ترى هل سنبحر في هذا الجو المضطرب ؟؟
ومن أجل التأكد دخلت إلى الانترنت وفتحت تطبيق windfinder ثم بحثت عن حركة البحر الذي وجدته هائجًا إلى قليل الهيجان مما زاد في ترويعي.

مع ذلك، عزمتُ وغالبت خوفي، وإن كان هاجس الموت في البحر لا يعزب عن تفكيري، فهو أهون عليَّ من هاجس العيش في هذا الوطن الجريح.

اتصلت بصديقي أيوب الذي كان قد سافر منذ أسبوع إلى مدينة الدار البيضاء وسألته إن كان قد تلقى اتصالا من المهرب أم لا، فكان جوابه بالإيجاب، وقال إنه أيضا ينتمي إلى مجموعة "ب" ثم اتفقنا أن نلتقي في مدينة القنيطرة.

فكّرت في والدتي ماذا أقول لها، وكيف سأبرّر لها سفري إلى مدينة أخرى في هذا الوقت المتأخر والجو المطير؟!

استلقيت في سريري للمرة الأخيرة، وأنا أتأمل خزانتي المليئة بالكتب وأتساءل مرة أخرى : كيف لي أن أترك أبواي وأسرتي وأيمّم نحو المجهول؟؟ أنّى لي بهذه القسوة ؟؟ وكيف ومتى حلّت بي؟؟

أشياء كثيرة تتشاكس داخلي، وأسئلة محيّرة تصبُّ على عقلي، وبينما أنا أتأمل في خزانتي، وقعت عيناي على كتاب "هروبي إلى الحرية" الذي كتبه رئيس البوسنة والهرسك داخل السّجن، أخذتُ الكتابَ وفتحتُه مباشرة على الصفحة رقم ١٧ التي يقول فيها " (..) إن هذا الكتاب هو هروب الروح والفكر، ولو كان قد أتيح لي الهرب لأعطيت الأولوية للهروب الجسدي قبل هذا الثاني." قرأت هذه الفقرة وقلت مع نفسي، إنه وقت الحرية التي أقدسها؛ إنه وقت الهروب الجسدي.

جمعت بعض أغراضي بحركات غير مسموعة؛ كيلا تستيقظ والدتي من وقع الصخب، ففي الأخير قررت عدم إخبارها بأي شيء؛ لأنها حين ستستيقظ في الصباح ستتصل بي حتما، وسأخترع لها كذبة بسيطة.

حملت حقيبتي الصغيرة التي وضعت فيها كتاب "هروبي إلى الحرية" وقنينة ماء وقليلا من التمر، ثم مررت من غرفة والدتي، وألقيت عليها نظرةً أخيرة، معتذرًا لها من كل أعماقي دون أن أنبس بكلمة. كانت في الجهة المقابلة تنام أختي الصغيرة ذات الأربعة أعوام، هذه المَلاك لم أشعر بنفسي حتى وجدتني أقبّلُها مع دمعات بالكاد أحبسها؛ أما أبي، فلم يكن في المنزل تلك الليلة.

خرجت بخطىً خفيفة من البيت، كلي أسىً وتذمر، لكن ما من حلٍّ غير هذا، فأنا لم يعد لي مكان في هذا الوطن العاق لأبنائه.

تمشيتُ قليلاً حتى ابتعدت عن الحي وأخذت سيارة أجرة نحو محطة الحافلات، وما إن وصلت حتى وجدت مجموعة من الصبية ينامون في العراء، البعض منهم يدخنون الحشيش والبعض يشمون مذيبات الصباغة (الدوليو) ويتسوّلون أمام بوابة المحطة.

قلت في نفسي، دولة لم تُوفر لهؤلاء مسكنًا وملاذًا يقيهم من البرد والشتاء، لماذا سأكمل حياتي فيها؛ دولة تصدّر الفوسفاط والذهب والسّمك، وتترك مواطنيها ينامون في العراء لا تسمى دولة؛ إنها مافيا تسرق الشعب، هكذا يجب أن نسمي الأشياء بأسمائها دون وجل.

كان الرعد يقصف المكان، والسماء بالكاد تتوقف عن البكاء، أما قلبي فكان هو الآخر يبكي معها، الفرق فقط أن بكاء السماء يخلّف النباتات والورود، في حين بكاء قلبي لا يخلّف سوى الأحزان السّرمدية والرّدى البطيء.

اشتريت تذكرة حافلة تجاه مدينة الدار البيضاء بعدما لم أجد الحافلة التي تأخذ مباشرة إلى مدينة القنيطرة، ثم اتصلت بصديقي أيوب مرة أخرى وأخبرته أن ينتظرني في مدينة الدار البيضاء ومن هناك نكمل طريقنا معا.

أيوب هذا، هو صديق الطفولة، كبرنا في حي واحد، كانت لدي معه طفولة مشتركة وهواجس مشتركة وأحلام مشتركة والآن تنتظرني معه مغامرة مشتركة.

انطلقت الحافلة على السّاعة الثالثة صباحا، ووصلتُ إلى مدينة الدار البيضاء على الساعة السابعة صباحًا. وجدتُ أيوب ينتظرني في المحطة، تناولنا فطورنا بشكل سريع وبحثنا عن الحافلة التي تأخذ مباشرة إلى مدينة القنيطرة؛ لكن ولسوء الحظ وجدناها قد غادرت بدقائق قليلة، وما كان علينا إلا أن نأخذ الحافلة التي تأخذ إلى مدينة الرباط، ومن تم نأخذ حافلة أخرى إلى مدينة القنيطرة.

وصلنا إلى مدينة القنيطرة على السّاعة الواحدة زوالا؛ أي قبل ساعتين على الموعد الذي ضرب لنا المهرب. كان الجو معتدلاً في مدينة القنيطرة؛ بحيث لم تمطر هناك قط.

ذهبنا إلى مطعم شعبي فقلت لصديقي أيوب، بأن يختار أكلةً غير دسمة؛ إذ ينتظرنا بحر طويل. أكلنا طبقًا من اللوبية، وبعدها ذهبت مع أيوب ليشتري التمر و قليلا من اللوز.

مرت تلك الساعتان بطيئتين مثل شهر، كنت أفكر خلالهما في أسرتي التي تركتها دون أن أخبرها بأي شيء، وأفكر أيضًا في البحر الذي بات بالنسبة لي صنو الموت.

***

على الساعة الرابعة تحديدا رنَّ هاتفي على نفس الرقم الذي اتصل بي صباحًا:

- عبدالله انوينة.
- نعم.
- هل أنت في مدينة القنيطرة ؟
- نعم.
- خذ سيارة أجرة إلى مقهى الوسام.
- حسنا.

أُغلِقَ الخط وما هي إلا ثواني حتى اتصل نفس الرقم بصديقي أيوب يخبره بنفس الشيء.

أخذنا سيارة أجرة إلى مقهى الوسام، فوجدنا ستة أشخاص، نَدَهَ عليّ أحدهم وسأل : من منكما أيوب ومن هو عبدالله.
قلت له بلهجة حازمة : أنا عبد الله من مجموعة "ب" وهذا أيوب من نفس المجموعة.
طلب منا أن نأخذ مشروبا وننتظر المكالمة، وكذلك فعلنا.

كان الجميع يبدو عليه التوتر في مجموعتنا "ب" التي تتكوّن من ستة أشخاص، تعرفنا على بعضنا البعض كلٌّ وحكايته.

"سعيد" هذا الذي لم يأخذ من اسمه شيء، حياته تعيسة، عمره ينوف عن ثلاثين سنة، حاصل على الإجازة المهنية في الاقتصاد والتدبير، وشهادة في الإعلاميات، لكنه لم يجد عملا يحفظ كرامته.

"كريم" لا يعيش حياة كريمة؛ فمنذ وفاة والدته وزواج والده من امرأة أخرى، خرج كريم من المدرسة، وبدأ في تعاطي المخدرات؛ لكنه في لحظة وعي، قرر الإقلاع عن المخدرات وبداية حياة جديدة وراء البحر، أراد أن يبتعد ما أمكن عن البلاد التي تأذى فيها بشكل مقرف.

"سمير" شابٌ عشريني مصاب بالسُّكري في عمر الزهور، لكنه يحمل همومَ من همْ في عمر الأشجار، يحتاج إلى جرعتي أنسولين يوميًّا؛ لكنه بالكاد يجد ثمن خبزة وماء.

"ناصر" شابٌ تعرضَ للكَسر من قبل رجال القوات المساعدة بينما كان يتظاهر أمام عمالة المدينة، يعزم أن يقدم اللجوء في إسبانيا.

"أيوب" صديقي، لاعب كرة قدم محترف، لعب في صفوف المنتخب الوطني الصغير، كما لعب في صفوف فريق مدينة آسفي وغيرها من المدن، وفي نهاية المطاف، هاهو يلقي نفسَه في عباب البحر بعد أن فقد الأمل في كل شي.

"عبدالله" الذي هو أنا، فلا أعرف قصته بشكل واضح؛ كما لا أعرف لمَ تراه يتواجد الآن في هذا المكان مع هؤلاء !!

سأل سمير: هل يمكن للمهرّب أن يبحر بنا في هذا الطقس.
أجاب ناصر: الجو هادئ؛ لكنه يشبه الهدوءَ الذي يسبق العاصفةَ، لا غور أن البحرَ سيكون هائجًا اليوم.
نطق سعيد: أعرف تطبيقا يعطي تحديثات عن حالات الطقس وحركة البحر بشكل دقيق.
قاطعته: هل تتحدث عن تطبيق windfinder ؟
أعقب سعيد : نعم هو ذاك، لقد اطَّلعت قبل قليل على آخر التحديثات، فوجدت أن البحر سيكون قليل الهيجان، وسرعةُ الرياح ستكون مرتفعة في البوغاز.
ردَّ سمير معلقًا: سيكون المهرب مجنونا إذا أبحر بنا في هذا الجو.
علّق أيوب: المهرب لا يهمه سوى المال. ثم أضاف: حتى لو كانت الأمواج مثل الجبال سأبحر، أفضل أن أموت في البحر على أن أعيش في هذه البلاد.
أردف سعيد قائلا : لم أعد أشعر بأي انتماء لهذه الدولة، الوطن في قلوبنا أينما ارتحلنا، لكن الدولة سرقت منا كل شيء، حتى أمهاتنا ها هي تبعدنا عنهن.

بقيت أستمع إلى قصةِ كلٍّ واحد منهم بكل أسىً وحسرة، وأطرح أسئلة استنكارية على نفسي: هل عجزت الدولة أن تلبي لهؤلاء احتياجاتهم البسيطة وتدعمَهم لتحقيق أحلامِهم الصغيرة، علمًا أن هؤلاء لم يكونوا يطلبون أشياءَ مستحيلةً أو صعبةَ المنال. سعيد، كان يحتاج فقط إلى عمل في مجاله، وكريم كان يحتاج فقط إلى الرّعاية، وسمير كان يحتاج فقط إلى العلاج، و ناصر كان يحتاج فقط إلى الحوار، وأيوب كان يحتاج فقط الى الدّعم!! ألهذه الدرجة عجزت الدولة التي تربح ملايير الدولارات كل يوم أن تغطي حاجيات بسيطة جدًّا لهؤلاء الفقراء؟! ألهذه الدرجة يعزّ على الدولة أن تلقي أبناءَها في البحار دون شفقة؛ بل و أن تتاجر بهم حتى؟!

مرتْ زهاء السّاعة ونحن نتحاور ونتقاسم أطراف الحديث فيما بيننا، كنا نتحدث ونستحضر اللحظات الحرجة التي تترحجن بين شعور الارتباك والتقهقر، وبين البَسالة والإقدام.

رنَّ هاتف سعيد، فشدَّ الجميع انتباهَه إلى المكالمة، لم يكن المتصل سوى مساعد المهرب الذي طلب منا أن نغيّر المقهى كيلا نثير أي شبهة.

أقترحَ سعيد أن ننقسم إلى مجموعتين؛ بحيث يذهب هو بمعية سمير وكريم إلى مقهى، وأذهب أنا وأيوب وناصر إلى مقهى آخر درءا للشبهات، فالشرطة في هذه المدينة أكثر من المدنيين، ونحن لا نحمل معنا البطاقات الوطنية خاصتنا، مما يعني أنه في حالة أوقفتنا الشرطة سنقضي ثمانيةً وأربعين ساعة في مخفر الشرطة من أجل تحقيق الهُوية، والاستفسار عن سبب الانتقال إلى مدينة أخرى؛ خصوصًا وأن الشرطةَ تعرف أن هذه المدينة هي بوابة الهروب الماكر، أو ما يصطلح عليه زورًا وتوهيمًا بالهجرة السرية؛ لأن هذا المصطلح لا يعدو عن عبارة رنانة، فهجرتنا هذه لم تكن سرية، كلُّ شيء كان علنيا؛ بل إن العسكر والقوات المساعدة هم من يقومون بها أو يتواطؤُن مع من ينظمها، لدرجة يستحيل معها أن يبحر أي مهرب دون إذن من العسكر الذين يراقبون المنطقة البحرية المزمع الخروج منها، وكلُّ من يبحر دون إذن منهم يتم إلقاء القبض عليه إما برًا أو بحرًا. وهذا المهرب الذي سنبحرُ معه هذه الليلة، والذي يعرف في مدينة آسفي باسم "الفقيه" معلومٌ أنّ جميع رحلاته البحرية تكون مكلّلة بالنّجاح؛ بسبب أنّه ينَّفق مع العكسر على ثمن

الرّحلة، والذي يقدر بملايين السنتيمات. بحيث يأخذ من لدن المهاجرين من ١٥ إلى ٢٠ ألف درهم لكل فرد، وقد يصل عدد الأفراد إلى ثمانين أو أكثر في بعض الحالات. ولك أن تحسبَ كم من الأموال يتقاسمها مع العسكر المتواجد في المكان المزمع منه الإبحار. أما جهاز الشرطة فلا دخل له بالموضوع؛ لذلك يجب أن نحترس أيّما احتراس من الشرطة؛ لأنه إذا تم اعتقالنا من أجل تحقيق الهُوية، سيتم الإبحار بدوننا ولا يمكن أن نعيد الكَرّة إلا بالمقدار نفسِه من المال.

جلسنا ثلاثتنا في مقهى شعبي، فتحت الانترنت لأجد على هاتفي مجموعةً من الرسائل على الواتساب من لدن والدتي، تستفسر عن مكان تواجدي وعن عدم الرد على اتصالاتها المتكررة، وما إن ظهرت لها إشارة دخولي على الواتساب، حتى اتصلت بي بخاصية فيديو، بادئ الأمر ترددت في الرد؛ لكن قلت مع نفسي، إذا لم أجب على المكالمة سيثير ذلك شكّها حتمًا.

- مرحبا عبدالله، أين أنت ؟؟ لماذا لا ترد على المكالمات؟؟.
- مرحبا أمي، أنا في مدينة الدار البيضاء مع صديقي ربيع.
- ماذا تفعل هناك، الجو مشتٍ.
- لا، لم تمطر هنا، أنظري إلى الجو كم هو مستقر.
(أظهرت لها ذلك في الفيديو)
- متى ستعود إلى البيت ؟؟
- لا أعرف، سأبحث عن عمل هنا في شركات الاتصال بمعية صديقي ربيع، دعواتك.
- الله معك، دعواتي معك دائما.

أغلقتُ الخط بذريعة أن الانترنت ضعيف، كيلا أتمادى أكثر في الكذب على والدتي، شعرت وأنا أقطع الخط بأسىً كبير و تردد مبهم، لكن شعورًا قويا داخلي كان يقودني إلى الابتعاد عن هاته البلاد التي أكلت أبناءها، وأنا واحد منهم ولم أستطع المواجهة فآثرت الابتعاد، وإن كان الابتعاد لا يعني لي -قطعا- الانسحاب أو الانهزام، بالقدر الذي يعني لي الرفض.

الرفض للواقع المغربي، الرفض للظلم والإقصاء والتهميش، الرفض للأمية والمحسوبية والفساد القضائي والطبي والتربوي، الرفض للحكومة وللمَلَكية التي

محقت الشعب ونهبت ثروته، وجوّعت أبناءه، وهرّبت أمواله إلى البُنوك المركزية في سويسرا وبنما، وقادت البلاد نحو التخلف.

نعم، لم أستطع المواجهة، ليس لأنني خائف، بل لأنني خلصت بحكمة ورويّة، بأنَّ المواجهة الفردية، لن تقودني إلا للسجن والتعذيب المجاني؛ كما أن السجن لن يكون تضحية في تغيير الوضع؛ بل سيكون سجنا وكفى، تماما مثلما حدث مع معتقلي الحراك السلمي بالريف وجرادة.

مرت أكثر من ساعة ونحن نجلس في المقهى دون أي جديد. أخذ ناصر سيجارة وأخرج من جوربه قطعة من الحشيش، أخبره أيوب أن يأخذ حذره من الشرطة، لكنه لم يأبه لتحذيره، عدَّ ناصر لفافة حشيش بسرعة خيالية، وبدأ ينشق بعمق غير عابئ بهذا العالم. وما هي إلا دقائق حتى تحقق قانون مورفي اللعين ودخلت الشرطة إلى المقهى. كنتُ أول شخصٍ يرمق سيارتهم أمام المقهى، فأخبرت ناصرًا بذلك فأطفأ السيجارة ورمى بها بعيدا، في حين فتحت الكتاب الذي أحمله معي وبدأت أقرأ فيه.

يمّم شرطيان وجهيهما نحونا مباشرة ثم نطق أحدهما موجها كلامه إلى ناصر :
- هل تدخن الحشيش ؟؟
- لا إني أدخن السجائر فقط.
- حسنا، سأفتشك.

بدأ ناصر يرتبك في الكلام ويردد، أقسم لك سيدي أني لا أدخن الحشيش، ليرد عليه الشرطي بلغة حازمة: حسنا، حسنا، إذا لم نجد عندك شيء نعتذر لك.

أول شيء فتشه الشرطي هما الجوارب، وجد ثلاث قطع من الحشيش، فقال له: هل هذا خبز يا ابن القحبة؟! ثم أمر الشرطي أن يأخذه إلى الفاركونيت.

خلتُ أن الأمر انتهى وكفى، لكنَّ الشرطيَّ توجّه إلى أيوب قائلا: هل أنت أيضا تدخن السجائر فقط.
أجابه أيوب بكل ثقة في النفس: أنا لا أدخن، أنا لاعب كرة القدم. ثم أخرج له بطاقة تثبت ذلك.
أخذها الشرطي وسأله : أنتَ من مدينة آسفي إذن، ماذا تفعل في مدينة القنيطرة؟!

- نعم أنا من مدينة آسفي، لكنني ألعب في جميع ربوع المملكة، لعبت في مدينة الناظور، وفي الصحراء، والآن أريد أن أجرب حظي في مدينة القنيطرة.
- بالتوفيق، هل هذا صديقك (يقصد ناصر)
- لا ، إنه ابن مديني فقط، التقيتُ به صدفة في المقهى، لا أعرفه معرفةً شخصية.

أجاب أيوب أجوبة منطقية، وعرف كيف يخرج نفسه من وغى الأسئلة. أما أنا فكنت فقط أفكر بمَ سأجيبه حينما سيسألني؛ لكن ومن حسن حظي، أن الشرطيَّ لم يسألني. فكرة أن أقرأ كتابا وأكتب بالإنجليزية نجحت.
غادر الشرطي المقهى، والتحق على زميله بالفاركونيت التي ظلّت متسمرةً أمام المقهى.

قال لي أيوب متذمرا: لقد أخبرت ناصرًا أن يأخذ حذره من الشرطة؛ لكنه لم يأبه لكلامي، يجب أن نغيّر المقهى حالا.
- فكرة سديدة، لكن انتظر أولاً حتى تغادر الفاركنيت، كيلا تكون هناك أي شبهات.
- ماذا لو أخبرهم عن سبب تواجدنا هنا، هناك احتمال كبير أن يجدوا المال بحوزته، مما يعني اكتشاف كل شيء.
- نعم كلامك منطقي، هيا سنخرج الآن.
- سنخرج فرادى، أخرج أنت الأول، افتعل كأنك تهاتف أحدًا ثم اتّجه في المسار المعاكس للفاركونيت، ستجد حديقة على شمالك، أجلس هناك، حتى ألتحق بك.

خرج أيوب بخطىً ثابتة وهو يتحدث في الهاتف مع لا أحد، وماهي إلا دقائق معدودة حتى اتصل بي يخبرني أنه بمأمن في الحديقة، قطعت الخط بعد أن طلبت منه أن ينتظرني هناك.

ندهت على نادل المقهى وناولته ثمن المشروبات مع بقشيش صغير، ثم خرجت بثقة كبيرة في النفس.

التحقت بأيوب واقترحت عليه أن نغيّر المكان الذي تغمره الشرطة من كل حدب، لدرجة يخيّل معها أن من ينظر إلى هذا الكم الهائل من الشرطة، لن يأتي على خلده أن المغرب يتصدّر المراتب الأولى في معدل الجريمة والسرقة والاغتصاب وإنتاج الحشيش. لقد عشت في المغرب أكثر من عشرين سنة، ولحدود الساعة لا أعرف ما هو دور الشرطة -تحديدا- في هذا البلد؛ يعتقلون الصبية الذين يدخنون

الحشيش، ويحمون التجار الكبار؟! يعتقلون من يطالبون بحقوقهم المدنية، ويحمون من يأكلها؟! ربما هذا هو دورهم الذي بات يعرفه الجميع.

***

بدأتِ الشمسُ تغرب، وبدأ معها الصبر ينفذ والارتباك يتسلّل إلى النُّفوس. قال أيوب مكفهر الوجه: أين هو المهرب الذي قال لنا يجب أن تكونوا في مدينة القنيطرة على الساعة الرابعة زوالا، ها هي ذي الساعة تشير إلى السابعة مساءً وهو لم يتصل بعد.

كان يعتقد أيوب أنَّ المهربَ سيبحر بنا في وضح النَّهار مادام أنه قد اشترى الطريق من العسكر. لم يكن يعلم أيوب أن هذا التأخير متعمدٌ من قبل المهرب؛ لأن هذا الأخير يعرف جيّدًا أن جلّ المغاربةَ لا يلتزمون بالمواعيد بشكل دقيق، وبالتالي وجب عليه لزاما أن يأخذ بعين الاعتبار هذه المشينة.

شعرت بالجوع والعياء الناتج عن كثرة السّهر و التفكير الزائد، فآثرت أن أذهب وأيوب إلى محل يعدُّ الشاي والفطائر.

طلب أيوب كأس شاي وقطعة خبز من الشعير، وكذلك طلبت أنا، تناولت الخبز بشهية طيبة، كما لو أن والدتي هي من خبزته، جلسنا في ذلك المحل زهاء نصف ساعة حتى رنَّ هاتف ناصر، الشاب الذي اعتقلته الشرطة قبل قليل.

قلت لأيوب وأنا أشير له بيدي: لا ترد على المكالمة.
قال وهو يريد ربط الاتصال : لماذا ؟؟
قلت موضحًا: قد يكون مجردَ كمين من قبل الشرطة !!
سأل مستغربًا :كيف ؟؟
قلت: هنالك احتمالٌ كبير أن يجدوا المال بحوزته ويكتشفوا كل شيء؛ وما هذه إلا حيلة منهم لاستدراجنا.
سأل قائلا : ما العمل إذن؟!

قلت: اتّصل بسعيد، وأخبره بأن ناصرا قد اتصل ولم نرد على اتصاله للسبب آنف الذكر.
اتصل أيوب بسعيد، و قصّ عليه الحكايةَ من بدايتها، فطلب منه هو الآخر عدم الرد على أيّ اتصالات خلا رقمه.
"قطعة حشيش صغيرة، ستفسد كل شيء، وماذا نريد غير الهروب من بلاد الحشيش!!." علّق أيوب ثم أضاف: إما أن نبحر دون ناصر، أو ينتهي كل شيء بسببه.
قلت: ماذا لو تذاكى ناصر قليلا ومنحهم مائتا درهم قبل أن يفتشوه في الفاركونيت وأخرج نفسه بسهولة. عشرون درهمًا تكفيه من التفتيش، فما بالك بمائتي درهم. لكن؛ هل تراه فعلها؟؟

حلَّ الظلام وبدأ الجو يتغير و السَّماءُ تتلبّد كما لو أنّها ستمطر، فتحتُ شبكة الانترنت على هاتف أيوب، وبحثت مرة أخرى في تطبيق windfinder عن آخر التحديثات الطارئة، فوجدت أن البحر قليل الهيجان في الساحل القنيطري وهادئ في البوغاز، كما أنها ستمطر ابتداءً من منتصف الليل وحتى حدود الخامسة صباحا.

"على العموم، سيكون المهرب مجنونًا إذا كان سيبحر بنا في هذه الليلة!!." علّقتُ.
ردّ أيوب: حتى لو أمطرت السماءُ الحجرَ عوض الماء، وارتفعت الموجة إلى عشرة أمتار، أريد أن أبحر معه، أفضل أن أموت في البحر على أن أموت في هذه الأرض الملعونة.

نعم، لهذه الدرجة من عدم الاكتراث و اللامبالاة والاستهتار بالحياة، وصل لها الشباب اليوم بسبب تأزم الأوضاع الاقتصادية، أو دعنا نقول بصريح العبارة، بسبب سرقة مستقبلهم من قبل الحكومة والنظام.

طلبت من أيوب أن يعيد الاتصال بسعيد، ليسأله عن أي جديد، فقد كانت الساعة حينها تشير إلى العاشرة ليلا ونحن ما نزال ننتقل من مقهى إلى أخر دون جدوى.

اتصل أيوب بسعيد غير ما مرة بيد أن هذا الأخير لا يرد على الاتصالات، كما لو أن خطبًا ما حدث.

هنا بدأت الوساوس تتربص بنا من كل صوب.
سألت وأنا أعبُّ من قنينة ماء: ماذا سنفعل الآن، إنها العاشرة ليلاً وليس لدينا أي مكان ننام فيه في حالة ما تأجلت هذه الرحلة، تبا وبِئسَ الحظ؟!.
بدأت أنفعل وأفقد جَلَدي ولم يوقفه إلا اتصال سعيد معتذرًا عن عدم الرد. قال لي إن الفقيه "مدبر الرحلة أو المهرب" اتصل به ويسأل عن مكان تواجدنا الآن.
"نحن في مقهى الباهية." أجبته.
"إلتحق بمعية صديقك قرب المحطة الطرقية، نلتقي هناك بعد نصف ساعة، اتفقنا" هكذا قال سعيد.
على وجه السرعة، غادرنا المكان، وبدأنا نبحث عن سيارة أجرة تقلُّنا إلى عين المكان، لكن دون فائدة، ما من سيارات الأجرة هنا، سألنا أحد الأشخاص، فقال لنا بأن سيارات الأجرة تتواجد على بعد ثلاثمائة متر، ودلّنا على المكان بشكل محدّد.

تتبّعنا المسار الذي أشار إليه ذاك الرجل، حتى وصلنا إلى موقف سيارات الأجرة. وجدنا طابورا طويلا من الناس ينتظرون دورهم في أخذ سيارات الأجرة الكبيرة.

سألت أحد الأشخاص الذي كان ينتظر في آخر الطابور عن مدة الوقت الذي يلزمه ليصل دوره، فقال إنه يلزمه أكثر من عشرين دقيقة.

التفتّت إلى أيوب وطلبت هاتفه، فتحت الانترنت على خريطة جوجل، وانخرطت في حساب التوقيت المحتمل للوصول إلى المحطة الطرقية مشيًا على الأقدام، فوجدت أنّنا نحتاج إلى خمس وعشرين دقيقة فقط.

قلت لأيوب لقد مرت ثلاثَ عشرةَ دقيقةً لتو، وإذا أضفنا عليها عشرين دقيقةً من الانتظار المحتمل هنا، ستكون حينا قد مرت ثلاثةٌ وثلاثينَ دقيقةً دون أن نبرح مكاننا. الأفضل لنا أن نذهب مشيًا على الأقدام، ومن المتوقع إذا أسرعنا الخطى أن نصل في الوقت بشكل محدد.

وافق أيوب على اقتراحي وتتبعنا المسار على الهاتف حتى وصلنا إلى المحطة الطرقية بعد الوقت المحدد بأربع دقائق تقريبا. اتصلنا بسعيد لنستفسره عن مكان تواجده بالتحديد، ليجيب بأنه في طريقه إلى المحطة حالاً. وبعد عشر دقائق توقفت قربَنا سيارة مرسيدس يسوقها رجل قصير القامة، كان يرتدي نظارات سوداء اللون، ويجلس بجانبه سعيد وفي الخلف كان هناك سمير وكمال، نده علينا مشيرا

بأصبعه، أن التحقوا بالسيارة. للوهلة الأولى، ظننت أن من يسوق السيارة هو "الفقيه" مدبر العملية، ليخبرنا سعيد أن هذا مجرد سائق سينقلنا إلى المكان الذي سنبحر منه.

ما إن ركبنا في السيارة حتى بدأت السماء تمطر بعض الزخات الخفيفة. كنتُ أسمع وقع المطر على زجاج السيارة وأسمع معها سمير وهو يهمس في أذن كريم و يسأله إن كنا سنخرج في هذا المطر. فيجيبه كريم مؤكدًا كما لو أنه هو المهرب، نعم سنخرج؛ لأن المطر يجعل البحر هادئا.

لا أدري من أي مصدر استقى كريم هذه المعلومة، لكنها جعلت سميرًا يستبشر ويستشرف الأمل، و لم يسأله عن مدى صحة هذه المعلومة من عدمها، فقد كان سمير في حاجةٍ ماسة أن يصدق كل شيء يوحي له أنه سيهرب من هذه البلاد في هذه الليلة المطيرة بالذات.

لم يتكلم السائق بحرف واحد؛ بل حتى عندما باشره أيوب بالسلام، لم يرد على سلامه. خرجنا على المدينة ما يقارب نصف ساعة من الطريق، حتى وصلنا إلى منزل في مكان مهجور ليس به غير ذلك المنزل.

قلت لأيوب وسمير وصديقه، حتما سنقابل المدبّر، وهنا سنمدّه بالمال قبل أن نبحر. استبشر سمير مرة أخرى، وقال لي نعم هذا ما سيكون إن شاء الله، وأخيرا سيشفينا الله من هذه البلاد.

نزلنا من على السيارة، وتبعنا السائق حتى حذو الباب ثم غادر بعد أن استقبلنا ثلاثة شبان أفظاظ، فقد كانوا يحملون السُّيوف في أيديهم ويرددون بصوت خشن: التزموا الصمت والنظام.

دخلنا إلى بيت كبير ليس به أي فراش، وجدنا كوكبة من النّاس يفوق عددهم عن الأربعين، منهم الأطفال والرجال والنّساء.

أقفلوا علينا الباب، بعد أن طلبوا منا مرة أخرى أن نلتزم الصمت.

مكثنا في ذلك البيت زهاء السَّاعة تقريبًا، كان الحديث كلّه يدور حول الطقس والجو المضطرب الذي يُحتملُ أن نخرج فيه، بين مؤيد ومعارض للفكرة، كان الجميع مؤيدًا باستثناء شابٍ ثخين عارض فكرة الإبحار في هذا الطقس؛ بذريعة أنه لا يجيد السباحة، ليرد عليه رهطٌ من النّاس، تتحدث كما لو أننا أندادُ مايكل فيلبس و كايلب دريسيل في السباحة.

بعد حوار ذي شجون وشجن، دخل علينا مدبر الرحلة برفقة ثلاثة فتية.
خطب قائلا:

- الليلة ستخرجون، من لديه أي تردد، فليذهب الآن؛ لأنني إذا ما خرجت من المنزل، لن أُعيد لأحد ماله!!.
ردّ الجَمعُ الغفير: نعم نريد أن نبحر، وليس لدينا أي تردد، نحن رجال.
" هل من أحد متردد؟ " سأل مجددا.

التفتَ الجميع إلى ذلك الثخين، بيد أنه أشار بالسّلب؛ لأنه لم يكن بمقدوره أن يعترض لوحده.

خرج المدبر وبقي رفاقه معنا، اختاروا خمسة أشخاص، واقتيد بهم إلى غرفة بالجانب. بعد ربع ساعة رجعوا إلى الغرفة، واختاروا خمسة أشخاص آخرين، يعني هكذا تتم عملية الدفع.

حين دخلت برفقة أربعة أشخاص، قال لنا رفيق المدبر : باسم الله، المال.

نزعت حذائي، وأخرجت من فراشه خمسة آلاف درهم ملفوفة ببلاستيك، وكذلك أخرجت من زوج الحذاء الثاني. عدّ الرفيق المالَ الذي أخرجته من حذائي، فقال لي، ينقصك خمسة آلاف درهم. ثم طلب من الآخر أن يمدّه بالمال، ليبدأ في إخراج المال من تحت سرواله الداخلي، طردٌ مغلفٌ فتحَه وعدّه أمامه سريعًا، خمسة عشر ألف درهم، كلها من فئة مئتا درهم.

الشخص الثالث، فتح معطفه القديم، وأخرج المال من جيبه الداخلي وهو يقول: هذه خمسة عشر ألف درهم، لا ينقصها سنتيم واحد، ليست في حاجة إلى أن تعدها.

رد عليه رفيق المدبر: باسم الله ومع ذلك سنعدّها.

الشخص الرابع، كان يخبئ المال في محفظة صغيرة، يعلّقها بشكلٍ مقلوب على الظهر.
أما الشخص الخامس، فبدأ ينزع جواربه، فيخرج منهم حصةً من المال، ثم ينزع سرواله ويخرج من جيوبه الداخلية حصةً أخرى من المال، ثم ينزع قميصه من جهة السّاعد، ويخرج مقدارًا آخر من المال، ثم ينزع قبعته ويخرج بعض الأوراق المالية المحكمة بلصاق، ثم ينزع حزام السّروال ويخرج من تحته أوراقَ مالية أخرى. كانت جميع هاته الأموال التي وضعها على الطاولة تبدو قديمة ومستهلكة، من فئات مختلفة، وأكثرها من فئة عشرين درهم.

علّق رفيق المدبر: "هذا عمل آخر، هل كنت تشحذ؟" ثم أضاف موجهًا الكلام للجميع: عدوا معي، و افرزوا كل فئة من الأوراق على حدة. دنوت من المال لأفرزه، فأبعدني الرفيق قائلا: خمسة آلاف درهم أولا أنا لم أنسَ.

على وجه العُجالة، أخرجت من الجاكيت خمسة وعشرين ورقة نقدية من فئة مئتي درهم وناولتها له؛ ثم بدأت أفرز الأوراق النقدية بينما مساعد المهرب يعدُّ المالَ الذي أعطيته.

قال رفيق المدبر بعد أن عدّ نقود الولد: ينقصك ألف وتسعمائة درهم .

أجاب الولد وهو يحكُ جبهتَه: ليس عندي غير هذا المال، أكثر من سنة وأنا أعمل، مرة في البناء، مرة في السوق، مرة في الصباغة، حتى تمكنتُ من جمع هذا المال، لقد جوّعت نفسي لأدّخر هذا المال كي أهرب من هذه البلاد.

ردّ الرفيق: لا تخبرني بقصة حياتك، أنا لا أعرف إلا المال؛ المال هو من سينقذني إذا ما زجّ بي في السجن، المال هو من سينقذك من البقاء في هذا البلد. إن لم يكن المال يكفي، كلانا في خطر.

بدأ الولد يستعطف الرفيق ويطلب منه أن يكتفي بهذا المال؛ لكنَّه رفضَ وطلبَ منه المغادرة.

التفتَ إلينا الولد بوجهٍ ذابلٍ يعمه اليّأس، مثل محاربٍ خسر المعركةَ وعائلتَه وبقي وحيدًا محبوسًا في أرض العدو، ثم قال لنا بصوت شاجن: هل يمكن أن تكملوا لي المبلغ.
قلت له وأنا أربت في ظهره: أنا سأعطيك ثلاثمائة درهم، هي التي بقيت عندي.
نطق الولد الآخر: أنا سأعطيك خمسين درهما، هي كل ما أملكه الآن.
قاطعَه رفيق المدبر موجهًا كلامَه إلى الولد الذي ينقصه المال: ناولني هاتفك.

ناولَه الولدُ هاتفَه، فتحسّسه رفيق المدبر بأنامله، وقلّبه من جهتين، ثم قال له: هذا هاتف رديئ من موديل قديم؛ لأول مرة أرى شخصًا فقيرًا يستخذم هاتفًا من موديل قديم؛ مع كل ذلك سأتعاون معك، دع هذا الهاتف القديم واذهب.

فرح الولد، وابتهل وجهه من السرور، وراح يشكر في الرفيق، كما لو أنه وضع له ختم التأشيرة إلى إحدى دول الشمال الغنية.

نعم؛ ففي نهاية المطاف، يعتبر هذا التّصريح، ختم التأشيرة الخاصة بالفقراء. في القنصلية يطلبونَ منك جواز السفر، والبطاقة الوطنية، و استمارة التأشيرة، وعقد عمل، أو السّجل التجاري، وبيان لآخر ثلاثة أشهر من تعاملاتك مع البنك، وحجز للطائرة، وحجز للفندق، وثمن التأشيرة، فضلا عن الأسئلة والمقابلات والاستفسارات والمحادثات عبر البريد الإلكتروني، والانتظارات والمواعيد التي لا تنتهي، وفي الأخير قد يأتي الرّد بالسّلب. أما التأشيرة الخاصة بالفقراء، فهي تحتاج فقط إلى خمسة عشر ألف درهم فقط، لا حاجة لجواز السّفر أو إلى مبلغ في البنك ينوف عن خمسين ألف درهم.

في دول أخرى، لا يحتاج المرء فيها إلى مثل هذه الإجراءات والتعقيدات، أفقر شخصٍ، يستطيع حجز طائرة والسفر أنّى شاء، دون تأشيرة ودون أموال في البنك، ودون أن يعرض نفسَه إلى الخطر. هكذا إذن؛ هناك ثلاثة أقسام من النّاس، قسم يحميه المال، وقسم يحميه القانون، وقسم منبوذ لا يحميه أحد، ونحن الفقراء من هذا القسم الأخير.

***

خرجنا خمستنا من الغرفة، وتبعنا الرفيق إلى الغرفة الأخرى، ثم نادى على خمسة أشخاص آخرين، وما إن خرجَ رفيق المدبر وأوصد الباب، حتى بدأت تُلقى علينا الأسئلة من كل صوب:

- كم أخذ منكم من المال؟؟ هل منكم من ناولَه المبلغ ناقصًا؟؟ ماذا لو كانَ المبلغُ ناقصًا بخمسمائة درهم ؟؟
قالت سيدة تحضن ابنتها ذات التسع سنوات بين ذراعيها: أنا سأدفع له ستة عشر ألف درهم، حصتي مع حصة ابنتي، تراه سيقبل؟؟.

مرت زهاء نصف ساعة تقريبًا، فخرج الأشخاص الخمسة، ودخل خمسةُ أشخاص آخرين، بما فيهم السيدة مع ابنتها والتي طلبت منا أن ندعو لها بظهر الغيب.

بعد مرور ما ينوف عن ساعة ونصف، دفعَ كلٌّ من بالغرفة دون أن يقصي أحدًا.

كانت السَّاعة تشير إلى الواحد والنصف صباحًا حين دخل علينا المدبّر للمرة الثانية، وبدأ يخطب بلهجة خشنة نفسَ الخطاب:

ستأتي الفاركونيت التي ستُقلكم إلى الشاطئ بعد نصف ساعة، من لديه أي تردد أو شك أو خوف، فليأخذ ماله الآن قبل أن أخرج من البيت؛ لأنني إذا خرجت لن أعيد المال لأي فرد.

أشار ولدٌ بيده مقاطعا المدبر: أنا لن أبحر معكم وكذلك لن آخذ المال!؟

سأله المدبر بصوت جهوري: كيف ؟؟
ردّ الولد مفسرًا: لا يمكن أن أخاطر بحياتي وحياتي أخي في نفس الرحلة؛ سيذهب أخي وأنا سأنتظر حتى الرحلة التالية.
نادى المدبر على رفيقه وسأله: هل كنت تعلم أن شقيقين سيخرجان في هذه الرحلة؟؟
أجاب رفيقه وهو يتلعثم في حديثه: لا ، لم أكن أعرف !!

أعقب المدبر على كلام الولد: أنا أيضا لا يمكن أن أقبل بذلك! ولو كنت أعلم بهذا من قبل، لطلبت أن يذهب أحدكما فقط، البحر لا يرحم. ثم التفتَ إلى الجميع وقال: هل من أحد يريد أن يأخذ ماله؟!

صمت الجميع، حتى باتت تسمع زخات المطر بالخارج.

صديقي أيوب بجانبي بدأ يهمسُ لي بصوت خافتٍ ويطلبُ مني أن أسأل المدبّر إن كنا سنبحر في هذا المطر؟! أجبته قائلا: المطر ليس هو المشكل، المشكلة الكبرى هي الريّاح.
أعقبَ وهو يضحك: المشكلة الحقيقية هي البقاء في المغرب.
يالها من نكتة واقعية تبكي!!

***

تماما كما أخبرنا المدّبر، مكثنا ما يقارب نصف ساعة تحديدا، قبل أن تأتي الفاركونيت، خرجنا على شكل طابور بطريقة منظمة، مثنى مثنى، بخطىً غير مسموعة، ركبنا نحو ثلاثين شخصًا في الفاركونيت كبيرة الحجم، وبقي بضعة أشخاص ركبوا في سيارات المدبر.

كانت الفاركونيت مكتظة عن آخرها؛ ظلام دامس بالكاد نتنفس بأريحية؛ همس ولغط؛ عياء جرّاء وضعيات الجلوس الضيقة؛ اهتزاز وتداع بسبب سرعة الفاركونيت والطريق المهترئ؛ خوف سادم يسرح في خيالنا. الخوف؛ ليس خوفا من الموت؛ بل خوفًا من الشرطة، التي قد توقفنا في أي وقت، فيذهب كل شيء سدىً !. هكذا؛ استمر هلعنا نحو أربعين دقيقة، قبل أن نصل إلى غابةٍ قرب الشاطئ، طلب منا السائق، أن ننزل مثنى مثنى بهدوء، وجدنا أيضا، ثلاثة أشخاص يحملون سيوفا تلمع مثل البرق ومصابيح صغيرة، أمرونا أن نتبعهم بخطىً ثابتة.

السماء كانت تمطر بينما نحن نتجه إلى الجبهة الأمامية للغابة، بدأنا نسرع الخطى، ثم بعد هنيهات، عَدَونا بسرعةٍ تجاه ضوء خافتٍ أسفل الغابة تحت تعليمات رفقاء

المدبر، الذين لا يتكلمون إلا بالسيف. ثيابنا ابتلّت عن آخرها واتّسخت جراء الأرضية المبتلّة. عَدْوُنا لخمس دقائق أو أقل تحت المطر، كان كفيلا بأن يبلل كامل ثيابنا.

وصلنا إلى الضوء الخافت أسفل الغابة، و الذي كان يحمله أربعة أشخاص من القوات المساعدة، نعم من القوات المساعدة، الذين كانوا يتصرفون بطريقة خشنة وفظة. أمرونا أن ننزوي في مكانٍ قريبٍ لست أدري أكان جرفًا أم جبلا صغيرًا، وجدنا زمرة من البشر، نحو خمسين شخصا قد بللتهم الشتاء يرتعدون من البرد، حتى إن صوت أسنانهم يسمع من بعيد بشكل جماعي. بداية الأمر لم أستوعب شيئا، حتى بدأت أسمع نداءات وتحايا من كلتا المجموعتين، ثم رأيت السيدة مع ابنتها، تجلس القرفصاء وتغطي ابنتها من الشتاء تحت ذراعيها، حينها فهمت، أن كل هؤلاء مهاجرون سريون و سنبحر سويًا هذه الليلة.

انضممنا إلى المجموعة، وبدأ أحد مساعدي المدبر، يحصي عدد الأشخاص، بعد أن طلب من الجميع أن يستقروا في أماكنهم، ثم اتصل بأحدهم وقال له : ٩٠ شخصا، ينقص عن العدد الإجمالي شخص واحد.

تسعون شخصا، Noventa personas، Ninety people ، تسعون شخصا في قارب مطاطي !! حتى مركب الصيد، لا يمكن أن يستوعبَ هذا العدد الكبير؛ قلت في نفسي أنّى لهذا القارب اللعين أن يتحمل هذا القدر من النّاس؟.

تسمّرنا في أماكننا، ونحن نداري البرد، ونطلب من الله أن يوقف المطر، ويساعدنا في الهروب من هذا الوطن مثلما ساعد النبي محمد في الهرب من مكة إلى المدينة، وساعد النبي يونس في الهروب من نينوى بعد طغيان قومه. وبينما نحن في نجوى مع الله سمعنا محرك القارب، ربما هو أحسن صوت سمعناه على الإطلاق في حياتنا، كما لو أن غريقًا كاد أن يفقد أمله في الحياة، حتى سمع محرك سفينة الإنقاذ تتجه صوبه؛ إنه بالإجماع، أفضل صوت، صوت الأمل الذي سيلقي بنا إلى الضفة الأخرى، أو سيلقي بنا في عمق المحيط، المهم أنه لن يتركنا نتألم لوحدنا، فالموت بات أهون لنا من الألم، خصوصًا وأن هذا الألم مقترن كثيرا بالألم المعنوي، الذي ينخر الحياة، ويحول الإنسان إلى كائن خرب منعدم الإحساس ينتظر توقف عضلة القلب ليرتاح للأبد.

حين سمعنا صوت المحرك، ذهب كل العياء والضجر، فلم نعد نبالي لا بالشتاء ولا بالجو ولا بالبحر ولا بالبرد، كل ما بتنا نفكر فيه حينها هو ركوب عباب البحر والهروب.

تقدّم نحونا أحد أفراد القوات المساعدة، وقال لنا بصوته الخشن: أطفئوا هواتفكم، ومن لديه أي سيجارة فليدخنها الآن، إذا ما دخن أحدكم على القارب تنتهي حياتكم جميعا، تضرعوا إلى الله في سرّكم و دعوه أن يُيَسّر في هذه الرحلة.

بدوري كنت قد أطفأت هاتفي من قبل، وغلفته مباشرة بعد أن دفعت المال، وكذلك فعل بعض الأشخاص.

على الأرجح، السّاعة كانت تشيرُ إلى الثانية صباحًا، حين طلبَ منا رفقاء المدبر- الذين كانوا مدججين بسيوفٍ لامعة - أن نتقدم بشكل منظم. في بداية الأمر، بدأ كل شيء بوفاق تام وانتظام لا مثيل له، حتى بدأت مجموعة متمردة في التدافع والتسابق على الصّف الأول وتعنيف القاصرين والفتيات اللائي كن في الصف الأول. بيد أن أحد رجال القوات المساعدة أوقفهم و أمسك من كان يتقدم المجموعة من عنقه حتى لم يعد يستطيع أن يتنفس إلا بمشقة، ثم ضربه بعصىً على الظهر حتى صرخ، بعدها ركلَه على مؤخرته ووركِه ثم قال له: إذا قمت بأي حركة دون إذني سأدفنك في هذه الخلاء، هل فهمت يا ابن القحبة؟؟
- "مفهوم سعادة الشاف" رد عليه بصوت مبحوح.
- "الآن عد إلى الخلف" قال .

عاد يتمايل إلى الخلف برجل شبه مكسورة، ذليل الوجه مثل كلب متشرد، قلت لأيوب لقد نال جزاءه، إنها أول مرة في حياتي، أجدني في صف قوات المساعدة التي طالما كانت لدي قصص سيئة معها في المظاهرات.

لا أحب الظلم، والشاب الذي ادّعى القوة و تظلم على من هم أضعف منه من قاصرين وفتيات، نال ما كان يبحث عنه، إنني لا أحب العنف، لكن مثل هؤلاء لا ينفع معهم غير العنف.

واصلنا المشيَ ببطء حتى نزلنا إلى الرمال، وبدأنا ندنو شيئا فشيئا نحو البحر الذي كان يشهد جزرًا كبيرًا. السماء كانت ما تزال تمطر والبرد يقطّع الأجساد، بيد أننا فقدنا الإحساس، ولم نعد نفكر سوى في القارب كيف سنركبه.

تجمع نحو تسعين شخصا أمام القارب الذي يبعد نحو عشرة أمتار على الشط.

طلب منا مساعدو المدبر وأفراد القوات المساعدة أن ننتظر زهاء السّاعة تقريبًا، حتى يتراجع الجزر قليلا، كي يقترب القارب من الشط أكثر، ولتسهيل عملية الرّكوب، نظرًا لكثرة تواجد الصخور بهذا الشاطئ الصغير. ابتعدنا قليلا عن الشط قرب جرف صغير، فتوارينا تحته اتّقاءً للمطر الذي بلّل ثيابنا عن الآخر؛ لكن العجيب هو أنه ما إن تسمّرنا تحت الجرف بدقائق معدودة حتى توقف المطر كليا؛ هذا ما يسمى عند البؤساء بقانون مورفي أو استهزاء القدر.

بقينا هنالك حتى الساعة الثالثة صباحا، لدرجة أن البعض فقدوا الأمل وبدؤوا يقولون إن المدبر لا يمكن أن يُخرج القارب في هذا الجو، وهناك من بات يقول إنه مجرد فخ نصبه المدبر ليسرق أمولنا، أما أنا فكنت أقول سنبحر في هذه الليلة؛ لأنه لو كان هدفه الاحتيال وسرقة أموالنا، لما كان هنالك أفراد القوات المساعدة؛ كما أن احتمال تأجيل الرحلة بعيد جدا؛ لأن العسكر يمنحون يوما واحدا، وإذا ما تعذر، يجب أن يدفعوا لهم مجددا؛ هكذا تسير الأعمال بينهم.

بدأ يتراجع المد، وبدأت الصخور الصغيرة تختفي، واقترب القارب من الشط قليلا؛ لكن المطر عاد من جديد.

توجّه أفراد القوات المساعدة نحونا بمعية رفقاء المدبر الذين نزعوا ثيابهم إلا من قميص وسروالٍ قصير، دون أن يتخلوا عن سيوفهم، اختاروا السيدة مع ابنتها، وثلاث فتيات والقُصّر و ذهبوا بمعيتهم وتركوا أمامنا أفراد القوات المساعدة.

قاد رجال المدبر الكوكبة من نسوة وقصّر نحو البحر، وقاموا بمساعدتهم حتى تمكنوا من ركوب القارب المطاطي، ثم بعد ذلك دخل بهم القارب إلى البحر نحو عشرة أمتار حيث لا يوجد أي صخور.

رجع رجال المدبر يتقاطرون ماء، وطلبوا منا أن نتبعهم تجاه البحر؛ أخبرنا أحدهم أنه لا يمكن أن ننتظر أكثر من هذا الوقت، فالبحر يشهد جزرًا كبيرا، والقارب لا يمكن أن يقترب أكثر، لكثرة تواجد الصخور بهذا الشاطئ، وأن الحل الوحيد هو السباحة إلى القارب.

ما إن نطق ب "الحل هو السباحة" حتى بدأ الاحتجاج والاعتراض من طرف البعض قائلين: "لا، لا يمكن ذلك، هناك من لا يجيد السباحة..نحن لم نتفق على هذا"

نهرهم أحد أفراد القوات المساعدة: مهاجر سري ولا تجيد السباحة، اِبقَ مع أمك خير لك. ثم أضاف بصوت شديد: الصبية والنسوة في القارب، أنتم جميعكم رجال؛ القارب أمامكم من يريد أن يغادر فليسبح ومن لم يرد، فليعقب عند والدته.

و ما إن أكمل حديثه، حتى بدأ كل من يحمل ألم الوطن في قلبه بنزع حذائه، وسبح تجاه القارب. أحدهم نزع كل شيء وألقى بثيابه ومحفظته، ثم دخل إلى البحر وهو يقول ما فائدة الثياب إذا كانت مبللة وستبقى مبللة، وكذلك فعلت مثله، إلا أنني لم أترك الثياب، بل أخذتها وجمعتها في محفظتي، كما جمعت ثياب صديقي أيوب، ثم علقتها في ظهري ودخلت إلى البحر.

كانت الأمواج على الشط قوية جدا، و حتى مع وجود ضوء القمر، لم أكد أفطن من أين كانت تأتي الموجة، مع ذلك لم أجد صعوبةً كبيرةً في تجاوز الحيّد البحري؛ لأنني ابن شرعي للبحر، والمال الذي دفعته لهذا المهرب، من كرم البحر. حين اقتربت من القارب رأيت بعض الأشخاص يتلاعنون، يقول أحدهم للآخر ، دعني أركب أنا الأول، والآخر يقول، لا، أنا الأول.

طلب أحد رجال المهرب من ربان القارب بأن يشغل المحرك وقال لهما: لا أحد منكما سيركب، ثم ابتعد عنهما بأمتار، و حمل ثلاثة أشخاص، في حين ظل الشابان يتلاعنان ويهدّدان بعضهما البعض.

ناديت على أيوب لأعرف موقعه لكنه لم يجب، فسبحت تجاه القارب مجددا، وحين أمسكت بالقارب، ساعدني بعض الأشخاص الذين وصلوا قبلي، وأخبروني بأن

أخبئ المحفظة؛ لأنه إذا رآها الربّان أو المساعد سيرمي بها في البحر. نزعتها من على ظهري وبدأت أرتدي الثياب وهي مبللة.

كانت السيدة تتقيؤ وابنتها تبكي، أي جحيم هذا؟ وأيُّ عالم هذا نعيش فيه؟؟ أي حياة هذه التي نحياها؟ أي حقوق هاته التي تتغنى بالمرأة والطفل والإنسان؟؟ أيُّ غابة نعيش فيها؟؟ قلت للسيدة بأن تُطأطئ رأسها نحو الأسفل وأن لا تنظر إلى البحر، فعلتْ ذلك دون نتيجة وهي تبكي مع ابنتها و تقول: سأقتل ابنتي ماذا فعلت؟؟ أريد أن أعود أرجوك!! هكذا توسلت إلى الرّبان، بيد أن هذا الأخير لم يستمع إليها، أو بالأحرى لم يسمعها.

بدأ مساعد المدبر في إعانة كل من يقترب من القارب، وكذلك كان يفعل الشباب الذي ركبوا، كلُّ شخص من زاويته، بدوري كنتُ قد سمعتُ شابًا بدا من صوته وكأنه ثلاثيني، ثخين الهيئة بالكاد يتنفس، يقول لي: أع..طني.... يدك... س..س.. سأموت ... أرجوك. قال ذلك وهو يتمتم غير قادر على الكلام. قبضت على يديه وجذبته نحوي، لكنني لم أنجح، فقد كان ثخينًا جدًّا ولا يستطيع أن يتحكم في جسده. طلبت من شاب بقربي أن يساعدني في حمله، فقال لي: دعه يموت، إذا صعد سيغرق القارب و سيغرقنا معه، من الأحسن أن يعود إلى الشاطئ .

التفتُ إلى الشاب الثلاثيني وطلبت منه أن يتمسّك بالحزام على حاشية القارب ريثما أبحث عن شخصٍ يساعدني في حمله. ناديت على سعيد الذي كان لتو قد صعد، فلبّ النداء سريعا، أخذت يد الثخين اليسرى، وأخذ سعيد يدَه اليمنى، وبدأنا في جره، ثم سحبناه حتى قاب وجهه من سطح القارب، لكننا لم نفطن كيف نسحبه كلياً، فجسده لا يسهّل علينا العملية أبدًا، نصفه في القارب ونصفه في الماء، بطنه مضغوط على حاشية القارب، مما يعسّر عليه عملية التنفس، بدأ المسكين يخرج من أنفه وفمه ريق لازج، ويسعل بصعوبةٍ وبصوت مبحوح يقول لنا: أنقذوني.

ـ " قضيبي، سيموت، أنزله قليلا" علّق سعيد.
قلت: "لا، إذا أنزلناه، سيصعب عليه الصعود مرة أخرى، وسيصعب عليه العودة الى الشط، لقد فقد طاقته، سيغرق حتما، ولن يراه أحد، حتى إذا رآه أحد لن يأبه به" ثم أضفت " شُدَّ من على ذراعه، وأنا سأحاول جرَّه من رجليه، سنسحبه بشكلٍ أفقي أيسر". شّد سعيد على الثخين من تحت ذراعيه وأحكم عليه بقوة من رسغه، في حين شددت عليه من تبانه فركبتيه، وبدأت أسحب قليلا إلى أن أصبحت أنا

أيضًا نصفًا في الماء ونصفًا في القارب، وبحركة بسيطة من الثخين سأسقط في الماء معه. شعرت بألم كبيرٍ في ظهري وقلت له إن هذه الطريقة لن تنجح معه فتركت ركبتيه وبقي سعيد ممسكًا بذراعه حتى سمعت أيوب، ناديت عليه وقلت له أن يأتي من مقدمة القارب، وطلبت منه المساعدة، فبدأ بدفع الثخين من رجليه، وشيئا فشيئا حتى تمكنت من ساعديه، وجررته بشكل أفقي، و باشرت في السَّحب، وحين اقتربت من سحبه كليًا، أتى سمير وساعدني في الإلقاء به وسط القارب بعد معاناة طويلة. صعد أيوب بعده بسهولة تامة ودون مساعدة من أحد، فأشرت له بأن يجلس قربي.

الثخين طفق يتقيؤُ في القارب، وبدأ يسترجع نفَسَه، ويسعل بطريقة عادية، غير أنه لم ينبس بحرف، فقد جلسَ القرفصاء وحشر رأسه بين ركبتيه بعد أن ضم كلتا يديّه حولهما والتزم الصمت دون أن يقول لأي أحدٍ منا شكرا، لربما كان يقول في نفسه، اللعنة عليكم جميعا لماذا لم تتركوني أموت وأنهي كل هذا العذاب.

بدأ القارب المطاطي يتمايل و يتثاقل، صعد على متنه أكثر من أربعين شخص، بالإضافة إلى الماء الذي يكاد يصل إلى الركبة، جراء الشتاء اللعينة، بدأت ثورة عارمة وسط القارب من طرف بعض الأشخاص على الربان ومساعده، يطلبون منهما أن يشغلوا المحرك ويمضوا ثم يصرخون "القارب لن يتحمل هذا العدد، سيغرق كل هؤلاء" لكن الربان أبى إلا أن ينتظر، كما أمرنا مساعده بأن نفرغ الماء من على القارب بقنان أحضرها من أجل هذا الغرض. شرعنا في إفراغ القارب، وبدأ المتواجدون على متن القارب يساعدون من هم في البحر، كريم أصيبت رجله وجرح أسفل قدمه اليمنى وبدأت تنزف ولا يكاد الدم يتوقف منها، وآخر به كسر على مستوى ساعده الأيسر، و غالبنا أصيبوا بجروح تتفاوت درجة عمقها وخطورتها نتيجة السباحة في الشط الذي تتواجد فيه الصخور أكثر من الرمال، والأمواج القويّة في الحيّد.

الأمور بدأت تزداد سوءا؛ القارب يتمايل وهاجس الخوف عمّ على الجميع. أحد الشباب الذي كان قد شبك رجليه مع رجلي، وقف على حين غرة كأن به مسٌّ من الشيطان وهو يقول: ماذا أفعل هنا، لقد تركت محلاً تجاريًّا، ماذا سأفعل في أوروبا هاته. ثم قفز إلى الماء، وبدأ يسبح تجاه الشط، في حين بدأ أصحابه يطلبون منه أن يعود وأنه سيندم فيما بعد، لكنه واصل السباحة و لم يأبه لكلامهم.

بمجرد أن قفز هذا الولد حتى بدأ الرعب يتسلل في صفوف الجميع، أحدهم قال لصديقه: أنا سأعود، هذا القارب لن يصل، أنظر إلى الماء في القارب... أنظر كيف يتمايل... نحن لم نتجاوز الشط بعد، فما بالك إذا دخل إلى عمق البحر، هيا لنعد، ولنبحث عن طريقة أخرى للسفر إلى أوروبا، هل تريد أن تخسرك أمك؟ فكر في والدتك، هيا لنقفز ..

نظر إليه صديقه وقال له بأسىً بالغ: لا، لا يمكن أن أتراجع، لا يمكن أن أعود، أفضل الموت على العيش هنا في هاته البلاد.

شدّ الولد على رأس صديقه بكلتا يديه وقال له بصوت مرتفع يملأه الغضب والحسرة: أنت لا تحب والدتك، أنت لا تحب والدتك. ثم صفعه و قفز في الماء وسبح بقوة تجاه الشط.

شاب آخر وقف على حين غرة وقال: اللعنة عليك أيها المهرب يا ابن القحبة، اللعنة عليك يا محمد السادس... ثم قفز في الماء متأثرا بكلام ذلك الولد الآخر.

ارتبك الوضع على متن القارب، بين من يصعد وبين من يقفز؛ بين من يسبح تجاه القارب، وبين من يسبح تجاه الشط.
هلعٌ ورهبةٌ تسيّطر على المكان، الرّبان يعيشُ أكثر لحظاتِه رعبًا، يقول بصوت مرتفع: أكثر من عشرين عامًا من العمل في البحر اختفت فجأة، يُشغل المحرك، وما هي إلا ثواني حتى يتعطل؛ زخات المطر بدأت تتكاثف، وحركة الرياح بدأت تشتد، وعياطٌ من على القارب يرتفع. فئة تقول: الجو مضطربٌ هذه الليلة، دعنا نؤجل الرّحلة. وفئة تقول: هيا شغل المحرك ودعنا نبحر، ستشرق الشمس قريبًا. وفئة تقول: إنه مجرد فخ لسرقة أموالنا. وفئة تردد: سنموت، لن يصل هذا القارب أبدا. أما الربان فكان في وضع لا يُحسد عليه، فالقارب تتحكم فيه حركة الحيّد البحري، وشدة التيار الذي نتج عن اشتداد حركة الرياح.

رن هاتف مساعد المهرب، لم نسمع رنين الهاتف، فقط رأيناه يتحدث، يقول: لم يصعد الكل، هناك من لا يعرف السباحة، ماذا سنفعل؟؟

ما إن أغلق هاتفه، حتى قال رفيق المدبر للربان توكل على الله فقام بتشغيل المحرك بنجاح هذه المرة. في حين أخرج رفيق المدبر قلعا كبيرا من البلاستيك، كان قد دَسّه في صندوق قرب قنان البنزين، ثم طلب منا على وجه السُّرعة أن نلتزم بأماكننا، ثم أمسك القلع من حاشيته، ورمى بالباقي على القارب في الجهة الأخرى، وبهذا كان قد تغطى القارب إلا من جهة الربان. الهدف من هذا القلع - الذي كان في لون القارب- هو بمثابة توهيم، فضلا أنه منع علينا دخول المطر.

على الأرجح، السّاعة كانت تشير إلى الخامسة صباحًا حين انطلقَ القاربُ بعد محاولات يائسة لتشغيله قاب الشط.

انطلق القارب المطاطي على صلوات الرسول، وترديد الدعاء وآيات من القرآن؛ خوفٌ مختلطٌ بالفرحة؛ خوفٌ من الموت، وفرحة بالهروب. دموعٌ حبيسةٌ بالعين، كل من على القارب تقريبا بدأوا يتقيؤن، كما لو أن الدماغ يقول للجسد: تخلص من كل شيء يربطك بهذا البلد.

القيئُ والماءُ في كل مكان على القارب، السيدة بجانبي ترتعد وتقرأ سورة الإخلاص، ثم تعيدها مرة أخرى، الرجل الثخين مازال يجلس القرفصاء واضعًا رأسه بين ركبتيه ويتنفس بصعوبة، أيوب بسط رجليه وراء ظهري وحاول أن يستوي في جلسته، كريم وسعيد ابتلعا حبّتي بروميتين درءًا لدوار البحر، أما سمير فقد كان يبدو مرهقًا للغاية.

أقلعت الشتاء بعد أن مرت ساعة تقريبا، نطق أحدنا: لنجمع هذا القلع فالمطر توقف. سمعه مساعد الربان وأجابه سريعا: هذا القلع ليس من أجل المطر ! نحن لا نزال أمام شاطئ القنيطرة مباشرة، هل تريد أن تعود إلى المغرب!؟

رد الكل بشكل جماعي: لا ...لا... لا... كل شيء إلا المغرب.

إن أكبر خوف كان يحمله هؤلاء البؤساء ليس هو الموت حتمًا، بل العودة إلى المغرب.
هكذا ينقلب الوطن إلى زنزانة في أرض العدو !! كيف وعلامَ يهرب هؤلاء من وطنهم، تاركين عائلاتهم وذويهم إلى المجهول؟! هل هرب هؤلاء من أجل الجوع؟ من أجل الحرب؟ من أجل وباء؟؟ قطعا الجواب هو (لا). ليس هنالك أي حرب،

أيُّ وباء، أيُّ جوع. الجوع الوحيد الذي هرب منه هؤلاء هو الجوع إلى الكرامة، الجوع إلى الحرية، الجوع إلى القانون، الجوع إلى العدالة، الجوع إلى المواطنة.

الأوروبيون يعتقدون أن سبب الهجرة غير الشرعية هو الفقر. هذا ليس سببًا بل نتيجة، السّبب المحوري والرئيسي، هو غيابُ العدالة ووجود فساد اقتصادي وإداري، وليس هو الفقر. المغرب من أغنى دول العالم، أقول ذلك بكل واقعية وبأرقام مثبتة ودقيقة جدا. أرباح المغرب في الفوسفاط فقط - والذي يعتبر أكبر احتياطي في العالم - تقدر بملايير الدولارات، تكفي بأن تحوّل المغرب إلى جنة فوق الأرض. فضلاً عن معادن أخرى وثروات بحريّة و زراعيّة تذرُ أموالاً طائلة. مشكلة المغرب، ليست هي غياب المال، بل هي تدبير المال؛ ليس الفقر، بل غياب العدل، وذلك بأن تحتكر فئة قليلة كل أموال الدولة، وتترك للشعب النزر القليل؛ الهوة بين الطبقتين هي مناط الإشكال.

***

توقفت الشتاء كليا بُعَيْدَ سطوع ضوء النهار قيد رمح، وتوقفت معها الرياح القوية في حين بدأ الزمهرير يشتد، وبدأ الجميع يرتعد و يأن. الطفلة في حضن والدتها، صرير أسنانها وهي ترتعد يُسمع أكثر من صوت المحرك.
أحد الأشخاص الذي كان يجلس قرب كريم أخرج رأسه من تحت القلع البلاستيكي وسأل: هل ابتعدنا عن المغرب ؟. ليجيبه مساعد الربان: نحن ما نزال عالقين في مؤخرة المغرب، أنزل رأسك.

رد عليه: أكثر من ساعتين ونحن نشق الأمواج ولا نزال في مؤخرة المغرب.
ـ "هل تتخيل القارب على شكل طائرة، أنزل رأسك" رد مساعد الربان.
صرخَ عددٌ من الأشخاص، موجهين كلامَهم إلى الولد: أنزل رأسك، ستسبّبُ لنا مشكلة.

طأطأ الولد رأسه وحشره تحت القلع مثل الجميع؛ وما هي إلا نصف ساعة حتى قال لنا الربان: لا يحاولنَّ أحدكم أن يشرئب برأسه، هناك مركب صيد يتّجه نحونا، سأحاول أن أغيّر المسار قليلا؛ التزموا الثبات و الهدوء حتى تمر الأمور بخير.

عم صمت رهيب، الكلُّ تجمّد في مكانه، ينتظر أن نتجاوز مركب الصيد بسلام.
الربان علّق غاضبا: اللعنة، إنه يتتبع مساري!!
- "إنه ليس إلا مركبَ صيد دعه يقترب" أعقب المساعد.
نطق أحدنا: ابتعد عنه ما أمكن، سيشي بنا.
رد آخر: كلامك صحيح، نحن ما نزال في مياه المغرب، حتما سيشي بنا.
قاطعهما مساعد الربان: مركب الصيد هذا يقترب في اتجاهنا، ليتأكد أن القاربَ هو لمهاجرين سريين لا غير؛ غالبًا الوشاية تكون مرتبطة بالمخدرات؛ لأن الأمور حينها تأخذ منحىً آخر له علاقة بالمكافئة والمال، أما القارب الذي يحمل مهاجرين بائسين مثلكم، فيكفيهم الحظ اليسير إذا ما بقوا أحياءً!

بدأنا نسمع صوت محرك مركب الصيد هذا يقترب أكثر فأكثر، حتى دنا كليًّا قرب قاربنا.
نطق أحد البحارة:
- السلام عليكم "حرّاكة" إسبانيا إن شاء الله !؟
أجاب الربان: وعليكم السلام، إن شاء الله، بإذن الله.
رد: الله معكم، الله يحفظ الأبناء، طريق السلامة.

ما إن نطق بعبارة "الله يحفظ الأبناء" حتى أخرج جل من على القارب رأسه من تحت القلع البلاستيكي، وبدأوا يرددون: حفظكم الله، وحفظ لكم أمهاتكم وأولادكم، الله يرزقكم من الخيرات، دعواتكم لنا أن نصل بأمان.

أعقب البحار: ستصلون بإذن الله، في أمان الله، الله معكم، مع السلامة.

رد الجميع : مع السلامة الله معكم أيضا.

غادر مركب الصيد، بعد أن تأكد أننا مجرد "حراكة" وأن لا مقابل سيربح منا.
نزعنا الغطاء البلاستيكي، وقررنا رميه في البحر، لكنَّ الربان طلب أن نحتفظ به، جمعه المساعد ودَسّه في صندوق قرب رجليه.

وأخيرا بات بإمكاننا رؤية السماء والبحر. الشمس أشرقت، وانعكاسها على البحر بات يسبب الدوران، البعض ما إن نُزع الغطاء البلاستيكي، حتى أصابهم الغثيان وبدؤوا يتقيؤون مرةً أخرى.

الآن اتضحت الرؤية، وأصبح بمقدوري رؤية كل من على القارب بشكل واضح. الغالبية هم من الشباب ما بين عشرين سنة وثلاثين ونيف، فئة قليلة من القاصرين لا يتجاوز عددهم عشرة أشخاص، ثلاث فتيات، بالإضافة إلى سيدة مع ابنتها. العدد الإجمالي ما ينوف عن الأربعين بقليل. شباب في أوج العطاء، يلقون بأنفسهم في غياهب الخطر، في أعلى مراتب الاستهتار بالحياة. هنا على القارب، أكثر من لاعب كرة قدم، وبطل ملاكمة، كما أن الغالبية ذوو شهادات دراسية، وكفاءات مهنية عالية. لا أدري كيف لا تستثمر الدولة في هؤلاء!؟ أليس الشباب هم أمل الدولة وعصبُ الاقتصاد؟! هل تعسّر على الدولة أن تعطي لهؤلاء الشباب حقوقهم، وتلقي أمامهم نورا من الأمل؛ أم أن الدولة تخالطت عليها الأمور فأصبح الأمل هو الألم!؟.

البحر هادئ، السّماء صافية، الجو مستقر، وحده البرد والزمهرير يلفح الأجساد وتقاسيم الوجه، الكل يرتعد جراء الملابس المبللة، التي تزيد من شدة البرد وتخفّض درجة حرارة الجسم، إنها الساعة العاشرة صباحا، خمس ساعات فقط، كانت كافية أن تغير ملامح وجوهنا، ألتفتُ يمنة ويسرة، فأجد الوجوه فاقعة اللون، منعدمة الدم، والشفاه جذلى في لون البياض، والعيون شاخصة كأنما تنتظر الموت، مشهد أكثر سريالية من لوحات روني ماغريت، وأكثر رعبا من رواية قناع الموت الأحمر ل إدغار آلان بو. خمس ساعات فقط، جعلت أسفل قدمي تبدو شديدة البياض، ما إن أضع يدي عليها حتى تتناسل بسهولة. حاولت أن أغير وضعيات الجلوس، لكن دون فائدة، فالمساحة والحيز لا يكفيان. اتفقت مع أيوب، أن يسرّح رجليه وراء ظهري نصف ساعة، حتى لا ينحبس الدم في رجليه، وبعد نصف ساعة أقوم بنفس الشيء. لكن ما إن بسط رجليه على ظهري حتى أحسست ببرودة شديدة، و على الرغم من أن الثياب مبللة كليا، إلا أن الجسم يحاول أن يتأقلم معها، وشيئا فشيئا أشعر بقليل من الدفء إذا ما جلست في وضعية واحدة.

لم تكد تمر إلا خمس دقائق، حتى سحب أيوب رجليه وطلب مني أن أبسط أنا رجلي. نبهته أن نصف ساعة لم تمر بعد، فقال إن رجله تؤلمه ولا يستطيع أن

يبقى أكثر من هذه المدة، فبسطت رجلي بدوري، لكن نفس المشكل، بالكاد قد مرت خمس دقائق فقط حتى سحبت رجلي، فقررت أن أجلس القرفصاء؛ فعلى الأقل هذه الوضعية، وإن كانت هي الأخرى غير مريحة فهي تمنع عني دوار البحر إذا ما أبقيت رأسي منخفضا. لكن السؤال المطروح دائما هو: كم من الوقت يمكن للمرء أن يصمد في هذه الوضعية؟؟ الدم يجب أن يتدفق إلى جميع مناطق الجسم، وفي حال انحبس في مكان ما، يبدأ التنميل وتنعدم الحركة و الإحساس في تلك المنطقة، ومنها إلى كامل الجسم.

كانت ثيابي كلها مبللة - والواقع أن الجميع ثيابهم مبللة - وتجعل من حرارة جسمي تنخفض شيئا فشيئا، لذا قررت نزعها كلها خلا سروالي الداخلي، عصرتهم جيدا، وفرشتهم فوقي، السروال عقدته فوق رأسي، و القمصان سرحتهم على ركبتي، وبين الفينة والفينة أقلّبهم في اتجاه الشمس. بدأ بعض الأشخاص يفعلون مثلي، نزعوا قمصانهم، و وضعوها على رؤوسهم وتركوها عرضة للشمس، ومن حسن الحظ أن الزمهرير بدأ يخف والشمس باتت تلقي علينا أشعتها التي تضرب الرأس ولا تدفئ الجسم. إنها نتيجة بيولوجية محضة، فهذا شهر يناير؛ شهر الشتاء والزمهرير وعلو الأمواج؛ شهر الجوع، كما يسميه البحارة الفقراء. يناير، الشهر الذي طالما كتب عنه الشعراء القصائد والأشعار الرومانسية، ها نحن ذا نكتب عليه - نحن الفقراء - قصيدة رثاء واقعية. إنه اليوم الأول من يناير، أول يوم من السنة، نعيشه بين الحياة والموت، لا نعرف هل سننجو أم سيأكلنا السمك في البحر مثل ما فعل بأصدقائنا من قبل؟؟ لا ندري هل سيبقى الجو والبحر هادئين حتى نصل إلى بر الأمان، أم سينقلبان مثلما انقلبت علينا بلادنا و التي لم تترك لنا خيارا سوى هذا؟؟

في الواقع - و لأكون صادقا - ترك لنا المغرب خيارين، السجن أو البحر، كل من يتكلمون بحرقة عن الوطن، ويريدون فقط أن يعيش الجميع سواسية في بلد القانون والكرامة، يتم مصادرة أفكارهم والتضييق على حرياتهم والزّج بهم في السجون في حالة تشبثهم بعنادهم، في حين من ينهبون المال العام ويسرقون ثروات الشعب ويغرقون المغرب في الديون، ينعمون في القصور بأموال الشعب ويضحكون على الشعب، تحت سند قانوني، يستمد شرعيته من الملك والدستور. هكذا تقوم الأمور في المغرب.

***

كنا كلّما ابتعد بنا القارب أكثر نشعر بالأمان أكثر، وكان أكثر سؤال تمّ تداوله على متن القارب هو: "هل وصلنا إلى المياه الدولية؟؟" أو "متى سنصل إلى المياه الدولية؟؟"

انتصف النهار، الشمس طبخت رؤوسنا، والثياب كلما بدأت تجف قليلا، يأتي عباب الماء الذي يرتطم بالقارب و يبللها من جديد. بعد تسع ساعات تقريبا من الإبحار، أوقف الربان القارب، قال لنا، يجب أن يريح المحرك قليلا؛ لأنه إذا تعطّل المحرك الوحيد، سنبقى وسط الأمواج. استغل الوقت، وبدأ يصلي صلاة الظهر وهو جالس، في حين ترك القارب يتلاعب بنا وإزاء ذلك أصاب البعض بالدوار والقيء مجددا. المرأة إلى جانب عدد من الأشخاص احتجوا قائلين "سنفقد الطريق" لأنهم أدركوا أن القارب تحركه التيارات واعتقدوا معها أننا ربما نفقد الطريق. أنهى الربان صلاته وطمأن الجميع أنه لا يمكن أن يفقد الطريق بوجود نظام التموضع العالمي (GPS) ثم شغّل المحرك من جديد. و بعدها بنحو ساعة تقريبا، بدأ يروج على متن القارب، أن الوقود من المحتمل أن لا يكفي، فانتشرت الرهبة في صفوف المتواجدين على متن القارب، خصوصا بعدما أكد ذلك مساعد الربان. أخبرنا أن هناك خيارين اثنين، إما أن نُكمِل الطريق غربا، حتى نتجاوز المياه الدولية، ونكون بمأمن مع احتمالية نفاذ البنزين فيما سيبقى من الطريق، أو الإبحار شمالا ونكون قد وفّرنا البنزين الكافي مع احتمالية أن تلتقطنا رادارات البحرية الملكية بطنجة أو النواحي. "خياران أحلاهما مر" كما يقول بيت شعري. لكن طبعا اخترنا الخيار الأول؛ أن نبحر غربا في اتجاه المياه الدولية، فضلنا أن ينفذ الوقود على أن تلتقطنا رادارات البحرية الملكية المغربية. علمًا أن قلة فقط لا يتجاوز عددهم خمسة أشخاص فضلوا العكس؛ بيد أنهم اقتنعوا في الأخير أن الموت بيد الله تعالى وحده، وأنه من الممكن أيضا أن نعرض أنفسنا للخطر وللموت في حالة ما التقطتنا رادارات البحرية الملكية، تماما مثلما حدث من قبل مع قوارب الهجرة السرية التي هاجمتها البحرية الملكية وقتلت عددا من الأبرياء على متن، وأشهر هذه القصص هي قصة الطالبة "حياة بلقاسم" التي قُتلت بنيران قوات البحرية الملكية بسواحل المضيق.

ومع أن الجميع -تقريبا- مؤمن بهذه الفكرة؛ إلا أنهم يرتجفون خوفا من احتمالية نفاذ البنزين، الشيء الذي يجعلهم يلعنون المدبّر كل دقيقة على الاستهتار بحياتهم.

واصلنا الطريق غربا حتى حدود الساعة السادسة مساء، أي حين بدأت الشمس في المغيب؛ حينذاك غيّرنا وجهة القارب شمالا تجاه إسبانيا، بدأت حركة الرياح في ارتفاع ملحوظ، وبدأت موجة قوية من البرد مرة أخرى، الأشخاص الذين تركوا ثيابهم على الشط، أصبح لون أجسامهم أزرق يميل إلى السواد، أما نحن الذين حملنا ثيابنا معنا و ارتديناها وهي مبللة، فأصبح لون أجسادنا أصفر يميل إلى البياض. إن أكبر مشكلة نواجهها الآن هي الرياح، الجوع والعطش والبرد يمكن أن نتحمّلهم، لكن الرياح يمكن أن تغرق القارب في أي لحظة. أحدهم كان يجلس بالقرب مني أخذ ولاعة - بعد أن أخرجها من غشاء بلاستيكي يضم هاتفًا وبعض اليوروهات من فئة عشرين وعلبة سجائر- ثم أشعلها في الفراغ وعلق قائلا:
- حركة الرياح في صالحنا؛ إنها في نفس مسارنا، ستساعدنا إذا ما نفذ الوقود.
سأله كمال الذي كان يجلس على جانبه الأيسر بهزء: كيف عرفت ذلك يا عالِم؟؟
أجابه بثقة في النّفس: إنها طريقة تقليدية كان يستعملها البحارة لمعرفة حركة واتجاه الرياح.

بدأ الظلام يعتم المكان والبرد يشتد، ولا أحد كان يفكر في الطعام، حتى بدأ أحدهم يأكل التمر عيانًا، ليشعر الجميعُ فجأة بالجوع، فالغثيان الذي كانَ يسبّبه الدوران بدأ يقل، وأضحى الدماغ يتكيف معه، والجسم بات يفكر في الطاقة الآن.
"أعطني تمرة واحدة أرجوك.. أعطني تمرة واحدة رحم الله أمك. . أعطني تمرة واحدة أشعر بالجوع الشديد... " هكذا كانت تتعالى الأصوات التي تسمع من على القارب، حتى أسكتها مساعد الربان قائلا: التزموا الصمت، سأوزع عليكم التمر والماء إذا انتهجتم النظام، ثم بدأ يوزع ثلاث تمرات على كل شخص، ويقول له، هذا ما نملك من طعام، ولا نعرف متى يمكن أن نصل، حَاوِلْ شقَّ التمرة الواحدة إلى شقين أو إلى ثلاثة، ثم رطّبها فوق لسانك ولا تمضغها، بل ابتلع ريقها فقط، وبعدها بمدة ضع شقا آخر وهكذا ستحارب الجوع. ثم بعدها وزّع قنينة صغيرة من الماء على كل ثلاثة أفراد منا.

غالبُ من كان على القارب لم يأكل لأكثر من أربع و عشرين ساعة، منذ جلوسنا في المقاهي ليلة رأس السنة حتى هذه الليلة، في حين البعض منا منذ أن صعد على القارب وهو يأكل خفية في حرص شديد أن لا يلاحظه أحد، تماما مثلما كنت أفعل أنا وصديقي أيوب.

أعطى مساعد الربان، ثلاث تمرات للثخين، لكنه بالكاد يرفع رأسه، قال له: لا أريد، الماء ..الماء. . الماء .. اللعنة على أوروبا هاته، لقد تركت طفلة مثل الأميرة، أنا أبٌ غير صالح لقد تركت ابنتي..أريد ماء .. ماء..

هكذا كان يردد الثخين، بلهجة متثاقلة تُحرّك القلوب وتجعلها تصرخ عوض أن تنبض.

حلَّ الظلام وحلَّ معه حزن مقرون بفرحة وخوف، إنها أول مرة أشعر فيها بمثل هذا الشعور المختلط، بالإضافة إلى شعوري بالتبول.
دون أن يلمحني أحد، أفرغت قنينة الماء، ثم حشرتها في حجري وحاولت أن أتبوّل؛ لكن البول امتنع عن الخروج خلا بعض القطرات التي كانت تخرج بصعوبة شديدة وتسبّب لي ألمًا شديدا في شيئي.

بعد محاولات متكررة دون جدوى، خلصت بأن البرد والماء هما من سبّبا لي عسر التّبول، ثم وضعت كفي على حجري وبدأت أولّد بعض الحرارة فوق شيئي عن طريق الاحتكاك والدعك، وهكذا بعد أكثر من ساعة من الاحتكاك استطعت أن أتبول في الأخير.
صديق لا أعرفه بجانب سعيد سمعته يقول لأحدهم، لا أستطيع التبول، ليجيبه الآخر، أنا أيضا تعسّر عليّ ذلك. بعدها علمت أن المشكل جماعي، ولم يسلم من هذا المشكل سوى من تبول قبل ركوبه القارب مثل أيوب.

أخبرت الجميع بصوت منخفض، أن يقوموا بمثل ما فعلته تماما لتسهيل عملية التبول. وعلى الرغم من أن جميعنا فعل ذلك في القنينة مباشرة، إلا أن القارب عمّت فيه رائحة البول، جراء القطرات التي تخرج أثناء الاحتكاك والدَّعك.

إن أكثر سعادة شعرت بها على متن القارب، هي عندما تبولت، شعرت أن ثقلا كبيرا أزيح عن حجري، وغمرتني راحةٌ كبيرةٌ على الرغم من الزمهرير والبرد

الذي يجرح الوجوه والآذان. انتصف الليل والقارب يمتلئ بالماء كل دقيقة نتيجة الرياح التي تجعل العباب يتطاير على القارب.

إن أغرب المشاهد التي رأيتها في ذلك القارب هو أن شخصًا كان يغط في نوم عميق، كما لو أنه نائم في منزله، تساءلت كيف لهذا الشاب أن ينام في هذا القارب الذي لا يمكن للإنسان العاقل والسوي أن ينام فيه حتى ولو كان في البر. إنها قمة اللامبالاة، اللا اكتراث، الاستهتار، الاستهزاء بالقدر، أو حين تتساوى الحياة مع الموت، الغريب أن الماء يتطاير عليه، وثيابه مبللة بالكامل، لكنه نائم يتقلب يمنة ويسرة، بوضعيات مختلفة، كما لو أنه نائم في فراشه الناعم. كل شيء في القارب كان يدعو إلى البكاء، سوى أنَّ مشهدًا كهذا، يجعل المرء يضحك حدَّ البكاء. كنتُ كلما أردت قتل التفكير السلبي، أقول لصديقي أيوب، أنظر إلى ذاك الشخص كم هو مرتاح يغط في نوم هانئ ، ليرد، إنه لا يغط في نوم عميق إنه ميت.

***

عاد السؤال مجدّدا يُطرح: هل تجاوزنا مياه المغرب؟ هل دخلنا إلى المياه الإسبانية؟؟

أجاب مساعد الربان بأننا نتموقع الآن أمام مدينة العرائش . وما إن نطق بذلك حتى بدأ الكل يتعجب ويسأل كيف لنا أن نتموقع أمام مدينة العرائش ونحن نبحر كل هذه المدة؟؟

علق أحدهم: لو كنا نسبح فقط، كنا الآن في إسبانيا، أليست مجرد خمسَ عشرةَ كيلومترًا.
رد آخر: لا تكن غبيا، خمسةَ عشرَ كيلومترًا هي المسافة من طنجة إلى الجزيرة الخضراء، نحن خرجنا من مدينة القنيطرة، ثم إننا لم نبحر شمالا مباشرة في اتجاه إسبانيا، بل غربًا في اتجاه أمريكا.
علّقت المرأة في ذهول: هل نتوجه إلى أمريكا؟؟!!
رد مفسرا: لا، فقط في اتجاه أمريكا وبعدها سنبحر في اتجاه إسبانيا.

قالت المرأة: كان من المفروض أن نتجه مباشرة إلى إسبانيا، ثم أضافت بصوت منخفض: لقد أخبرونا أننا سنصل بعد ثمان ساعات فقط، ها نحن الآن نتجاوز العشرين ساعة من الطريق، إنهم كاذبون.

نطق أحدهم: هذا شيء متعارف عليه عند جميع المهربين، هل تعتقدين أن هناك مهربًا يقول إن رحلته ستكون ثلاثة أيام في البحر، ومن المحتمل أن يغرق القارب، أو ينفذ الوقود، أو تقبض عليه البحرية الملكية؟؟ كلهم يقولون كلمة مشهورة عند جميع المهاجرين الذين اختاروا هذه الطريقة غير الشرعية seguro وهي عبارة إسبانية تعني "مؤكد" أي أن الرحلة مضمونة مائة في المائة، هكذا هم المهربون، لا يهمهم سوى المال، ولأجله يتحتّم عليهم الكذب و الخداع.

المهرب إلى حدٍّ ما يشبه السياسي، نفس الغاية، الحصول على المال، فقط يختلفون في الوسيلة و الطريقة؛ المهرب يقنع المهاجرين أن الرّحلةَ ستكون مضمونةً، وفي الواقع يمكن أن يحدث العكس. والسياسي، يقنع الشعب أن حياتهم ستكون جيدة، وفي الواقع يعمل على العكس.

هكذا كان الحوار لوهلة على متن القارب، يجمع بين الذكي والسّاذج. والواقع أن الحياة كلها عبارة عن تقاطع بين الذكاء والسذاجة، أما الغباء فيتخذ دائمًا منحىً آخر.

بدأت معالم الصباح في الظهور، غسق يجعل السّماء تبدو في كامل زينتها، الحيتان الضخمة تسبحُ أمامنا، قصيدة من الشعر، مكتوبة بحروف الإله تسلب الأفئدة والعقول، لوحة فنيّة من صنع هذا الخالق الذي حارت فيه العقول بين منكر ومؤمن. الإله معنا الآن، الكل يشعر أن الله موجود، لا يمكننا أن لا نشعر به الآن، بالأمس القريب، كنت أبحث عن الله في الكتب، والآن وجدته قريبا بداخلي.

المرأة تشق نصف تمرة وتضع شطرا في فم ابنتها وتكتفي بالشق الآخر وهي تدعو (اللهم أوصلنا على خير) ليردد الجميع (اللهم أمين) هكذا كان الله أقرب كيانا إلينا على متن القارب.

على الأرجح الساعة كانت تشير إلى الخامسة صباحا، حين بدأ المحرك يصدر صوتا غريبا، أوقف الربان القارب، وهو يقول لمْ نرح المحرك كفاية ثم أسكته لوهلة، وحين همَّ بتشغيله من جديد، لم يعمل، أصدر صوتا غريبا وسكت، ثم أعاد تشغيله وسكت مرة أخرى، في حين انخرط كلّ من على القارب يرددون في هلع كبير "لا تفعلها، لا تخذلنا أنت أيضا" ويطلبون من الله أن لا يخذلهم.

في المرة الثالثة، حين حاول الربان تشغيل المحرك، تم ذلك بسهولة، وانطلقت دعوات تصدح من على القارب (الحمد لله..الحمد لله)

خمس دقائق من التوقف كانت كفيلة بأن تغيّر مسار القارب، لتتحكم فيه التيارات البحرية القوية والرياح التي تزداد دقيقة بعد دقيقة. واصلنا السير حتى الصباح، سويعات بعد الشروق، لا أحد غيرنا في البحر، لم نلتقِ بسفينة واحدة، في الليل كانت تظهر لنا أضواء مثل النجوم هي لسفن تبعد عنا بأميال وعقدٍ بحرية كثيرة، لكن لم نقترب منها كفاية، الآن لا شيء سوى زرقة المياه، وزرقة السّماء، وزرقة الوجوه التي أنهكها الزمهرير، وزرقة داكنة تبدو لنا على بعد أميال قليلة. نطق أحدهم إنها سمكة، وقال آخر، إنها حزمة حشيش، ما إن قال الولد عبارة "حشيش" حتى طلب المساعد من الربان الاقتراب قليلا، ليتفاجأ الجميع أنها جثة لإنسان مثلنا؛ لا ريب أن أحدهم قد لقي حتفه وهو يحاول الوصول إلى الضفة الأخرى، لكن السؤال المطروح هو أين أصحابه ؟؟ هل أكلهم السمك؟؟.

جُزعنا واقشعرّت أجسادنا ونحن نعاين كيف يتلاعب العُباب بالجثة وكيف يتناسل اللّحم - الذي غَدَا أبيض - عن العظام عند كل موجة. مشهدٌ مرعب لن يشعر به إلاّ من عاشَ أحداثه.

طلب مساعد الربان متأثرًا بأن يوقف القارب، من أجل دقيقة صمت ترحمًا على الشهيد، بيد أن المتواجدين على متن القارب رفضوا أن يوقف المحرك؛ لأنه من الممكن أن لا يشتغل مرة أخرى، فاقترحوا عليه أن يصمتوا دقيقةً "صلاةً" من أجل الفقيد دون توقف المحرك.

"رحمه الله تعالى، أمين" هكذا ردّد الجميع بصوت مرتفع بعد دقيقة صمت. أما المرأة فبدأت تبكي، وابنتها الصغيرة تكفكف دموعها وتقول لها سنصل إلى البيت.

أبكاني هذا المشهد كثيرا، ولا يمكنني إطلاقا أن أزيله من ذاكرتي، طفلة لم تنه عقدها الأول تمسح دموع أمها وتحاول تهدئتها في أكثر اللحظات رعبًا وقسوة. لم أدرِ من أين سقطت كل تلك الشجاعة على هذه الطفلة؛ إذ كيف يعقل أن تشاهد جثة بيضاء تطفو على الماء أمامها مباشرة دون أن تجزع أو تُرعب، أي قوة منحها الإله؟؟.

انتصف النّهار ونحن ما نزال نبحر، الشمس اختفت فجأة والجو أضحى ضبابيًّا وباردا، أما هاجسم الخوف فبدأ يختفي، خصوصا بعد البشارة التي ألقاها علينا الربان، وهي أننا دخلنا إلى منطقة البوغاز، وأننا تجاوزنا المياه المغربية، لم نكن نعرف حينها أن أخطر ما سنواجهه في حياتنا هو جحيم البوغاز هذا؛ مقبرة المهاجرين السريين.

القارب يسير بأقصى سرعته، لكننا نشعر وكأننا لم نتجاوز مكاننا، طلب الربان أن نتراجع إلى الخلف ونترك مقدمة القارب تَخِف وتعلو قليلا لتسريع القارب، لكن المساحة لم تكن تكفي لفعل ذلك.

وجوه ذابلة، شفاه تحوّلت إلى السَّواد، عيون حمراء، الجوع والعطش والإرهاق والبرد، كل هذا كان يحتاج منا إلى قوة صامدة تقف إلى جانبنا (الأمل) وحده الأمل يجعل المرء قويا.

على حين غرة، ودون سابق إنذار، توقف محرك القارب، حاول الرّبان تشغيله من جديد مثلما فعل المرة السّابقة، لكن دون نتيجة، لم يعد يصدر أي صوت رغم عشرات المحاولات، القارب بدأت تتلاعب به الأمواج، وبدأ كل شخص يشدُّ بإحكام على الحزام الذي يحيط بالقارب، أصوات من هنا وهناك، ارتباك ليس بعده أي ارتباك، لم نعد نفكر لا في القرّ ولا في النوم ولا في الجوع، بات تفكيرنا منصبا في جدلية الموت وهي تتربص بنا في أسوء تجلياتها.
سبٌّ و قذف وعراك لفظي بين الجميع، هذا يسب هذا، وذاك يلعن ذاك.

"ماذا سنفعل الآن يا أبناء العاهرة" نطق أحدهم.
قال آخر: انظر، لربما المشكل في الوقود.
أجاب الربان: المحرك تعطل لأننا لم نرحه.
رد الجميع بغضب جامح: كان من الممكن أن تفكر في ذلك من قبل وليس الآن.

قالت المرأة: لقد وثقت فيكم، اللعنة عليكم جميعا، يالله خذ روحي ودع ابنتي تعيش!!
تلتفت إليها ابنتها بعيون حزينة وتقول لها بكل براءة: هل ستذهبين عند أبي وتتركيني وحيدة.
انخرطت المرأة في البكاء مرة أخرى، ثم ضمت ابنتها بقوة وقالت بصوت شجن: لا لن أتركك وحيدة.
الكل يصرخ ويحتج، يلعن ويسب، حتى الفتيات اللواتي كن تلتزمن الصمت ولم يسمع أحد صوتهن، تمردن وبدأن في السباب والاحتجاج، أما ذاك الولد الذي كان يغط في نوم عميق، فقد استفاق مذعورا، وبدأ هو الآخر يقول: سنموت جميعًا يا أبناء القحبة، ثم نطَّ على ربان القارب وشنقه وقال له: اتصل بالطوارئ الآن، ستدخل السّجن يا ابن القحبة.

أخرج الربان سكينا صغيرا، وقال له إن لم تجلس مكانك، سأقتلك قبل أن يغرق هذا القارب الملعون.
رد الولد بصوت جهوري: سأموت وإيّاك في البحر يا ابن القحبة.

تدخل مساعد الربان وقال: هذه ليست مشكلة الربان، دعنا نفكر في الحل، الشجار لن يفيد في أي شيء. ثم أضاف وهو يهدئ في الجميع: لن يموت أحد بإذن الله.

تراجع الولد وهو يقول بصوت مرتفع: من منكم يملك سيجارة؟؟
أجاب مساعد الربان أنا سأعطيك سيجارة، اجلس.
"أنا أيضا أريد سيجارة .. وأنا أيضا.. أنا أيضا أريد سيجارة.." هكذا كان يردد الجميع.
ردَّ مساعد الربان، لدي علبة سجائر واحدة، سأبيع السيجارة الواحدة بمائة درهم.

كان القارب يتلاعب به التيارات، و الماء يتطاير إليه من الخارج، مع ذلك بدأت مجموعة تفكّر في التدخين غير عابئة بالطامة الكبرى التي نقع فيه. أخرج أحدهم مائتي درهم وقال: إن كان قد كتب الله علينا الموت سنموت لا محالة، وإن وصلنا ماذا سنفعل بهاته العملة الحقيرة، ثم طلب سيجارتين، و ما إن أشعل إحداها ونفث الدخان إلى الأعلى، حتى بدأ الجميع يشتري السجائر.

استغربت أيّما استغراب حين رأيت ذلك المشهد السريالي، إنها قمة الاستهزاء بالحياة؛ حقا هؤلاء فقدوا الأمل في كل شيء.

قام شخص قصير من مكانه وطلب من شخص آخر أن يمنحه مُجّة من السيجارة، لكنه امتنع معلقا: لقد اشتريتها بمائة درهم. لم يستسغ القصير كلامه، فقال له: أحشرها في مؤخرتك.

ما إن سمع الآخر ذلك حتى رد بلكنة عنيفة: سأحشرها بين رجلي أمك.
أجابه القصير بلكمة على وجهه ودفعه في الماء، فجرّه الولدُ معه فسقطا في الماء معا، وبدأ الجميع في العويل، وصرخت المرأة وهي تقول بصوت مبحوح: أنقذوا الولدين إنهما يغرقان؟!

شدّ الربان على رأسه وهو يردد: اللعنة، اللعنة، اللعنة.. أيها الصبية.

بدأ الولدان يسبحان في اتجاه القارب، و يتلاسنان: "حين ستصل إلى البر سأقتلك " ليرد القصير "سأقتلك الآن يا ابن العاهرة"

من حسن حظهما أنهما كانا يجيدان السباحة، حاولا الصعود من مؤخرة القارب، لكن ما إن يشدوا بأيديهم على الحزام في الحاشية، حتى يفقد القارب توازنه، ويصبح على شفا من الانقلاب.

طلب مساعد الربان أن يستوي الجميع على القارب، من أجل أن يصعد الولدان دون أن يفقد القارب توازنه، وهكذا حصل. صعد القصير بسرعة بمساعدة صديقه، وركل الآخر على وجهه حين كان يحاول أن يصعد على متن القارب.

بدأ أصدقاؤه يهدؤون فيه، وأعطوه سيجارة، وقاموا بمساعدة الآخر حتى صعد.

"هداكم الله، هداكم الله يا أولاد" ردّدت المرأة وهي تنتحب.

مرت ما يقارب ساعة من الزمن ونحن عرضة إلى التيارات التي تتلاعب بنا في صورة تراجيدية بئيسة، حاول الربان معرفة سبب العطل لكنه لم يفطن لشيء، فقام شابٌ أسمر وقال له: أنا سأصلحه لقد كنت أعمل في المغرب ميكانيكيًا. استبشر

الجميع بمن فيهم الرّبان، تقدم الشاب إلى مؤخر القارب بخطىً بطيئة حتى وصل إلى مكان المحّرك وبدأ في فحصه فقال الشاب الأسمر بلكنة حزينة: لقد انكسرت عَنَقَةُ المحرك كما أن فلتر الهواء انسدَّ مما جعل ضغط هواء الكَسح ينخفض ويتعطل المحرك. سأله مساعد الربان عن الحل فأجابه بأنه يلزمه أدوات ليفكّك المحرك ويصلحه. علّق الربان قائلاً: سنحاول إشغال المحرك للمرة الأخيرة إذا لم يشتغل سنتصل بالطوارئ؛ لكن قبل هذه المحاولة سنقرأ سورة الفاتحة بشكل جماعي ونطلب من الله أن يساعدنا.

بعد قراءة الفاتحة سحب حزام المحرك وهو يردد "الله أكبر" لكن المحرك لم يشتغل، هنا استسلم الربان ومساعده، فقاما بالاتصال بالطوارئ، لكن؛ لم تكن الشبكة متاحة.

الدقيقة كانت تمر كالسّاعة، الجَميع يقرأ القرآن ويدعو الله، انقلب الغضبُ إلى خشوع، والسبُّ إلى ذكر الله.

مرت ساعة أخرى والقارب مازالت تتلاعب به التيارات البحرية، وبلطف من الخالق، انخفضت سرعة الرياح، وهدأت الأمواج، كنت أتصور في مخيلتي أن موجة واحدة متوسطة، ستكون كفيلة بأن تغرق القارب في أقل من ثانية.

لم نكن ندري أين تذهب بنا التيارات، شرقا أم غربا، شمالا أم جنوبا، كنا فقط نأمل أن لا تعيدنا التيارات إلى أحد شواطئ المغرب!!

الجميع أخرجوا هواتفهم وبدأوا يتصلون بخفر السّواحل الإسباني، لكن دون نتيجة تذكر، مرت ساعة أخرى ونحن نتجمد من البرد، وجوه شاحبة، عطش قاتل بسبب الهلع والخوف والصراخ، لا وجود للماء، لا وجود للطعام، لا وجود للحياة هنا، كل شيء يدل على الموت لا محالة.

أين نحن الآن، هل ترانا اقتربنا من إسبانيا الملعونة هاته، هل هذا هو البوغاز فعلا، إذن لماذا لم نرَ سفينة واحدة تمر بجانبنا، علما أن عشرات السفن التجارية والبحرية تمر يوميا من هذا الممر، هل هذا هو قدرنا؟؟

بدأت معالم النهار تختفي شيئا فشيئا، ونحن ننتظر ساعتنا الأخيرة، عمّ صمت رهيب على القارب، الكل أصابه اليأس، لم نعد نفعل أي شيء، حتى الربان جلس القرفصاء، وبدأ يحدثنا قائلا إنها أول رحلة لي في اتجاه أوروبا، أنا مجرد صياد سمك عادي، لدي عائلة صغيرة ولدي طفلة عمرها الآن ثلاث سنوات، مصابةٌ بمرض القلب وتحتاج إلى خمسين ألف درهم ثمن العملية، لم أجد من يساعدني أو يتكفل بهذه العملية، كما أن جميع المستشفيات رفضوا أن يعالجوها، وفي نفس الوقت لم أستطع أن أفترش الأرض وأشاهد طفلتي تموت أمام عيني؛ لهذا قبلت أن أقود هذه الرحلة من أجل طفلتي. وها أنا الآن، إن لم أمت في البحر، سأدخل إلى السّجن، وأترك ابنتي تموت ببطء، ثم طفق يبكي مثل طفل صغير واستدرك مضيفا بنبرة حزينة: هذه هي الطريق إلى أوروبا، قتلت أحلام آلاف الناس، نحن لسنا هم الأوائل كما أننا لن نكون الأواخر، اللعنة على من كان السبب في هذه المجازر البحرية.

إحساسٌ لا يمكن وصفه بالكلمات، أن تواجه الموت، أن تشعر أنك تدنو من الموت شيئا فشيئا، ثانية بعد ثانية.

الشخص الوحيد الذي تستحضره بين عينيك هو أمك، حينها يخالجك ندمٌ قاتل، وتكتشف أنَّ حضنَ والدتك والعيش قربها هو أسمى ما في هذا الوجود. لربما الشخص الذي صفع صديقه في الشط وهو يقول له "دعنا نرجع، أنت لا تحب أمك" أفضل منا جميعنا وأنقى قلبًا؛ بحيث لم يستطع ترك أمه؛ أما نحن فلا نملك قلوبًا، لقد أصبحت صدئة، ولم تعد صالحة سوى لضخ الدم، غير مدركين كيف وصلنا إلى هذه المرحلة، وكيف تسللت إلينا هذه القسوة؟.

هكذا كان إحساسنا ونحن ننتظر الموت، معظمنا يئس من النجاة، وراح يفكر في الآخرة، وفيما ارتكب من ذنوب، وراح يطلب من الله المغفرة. وحدها المرأة التي معنا، كانت تملك أملا قويا، وإيمانا كبيرا وتقول لنا: سننجو بإذن الله...الله كبير.
أحدهم أخرج هاتفه من كيس بلاستيكي وبدأ يسجل مقطع فيديو يقول فيه: أعتذر منك والدتي كثيرًا، لم أخبرك بأي شيء بخصوص هذه الرحلة الخطيرة لأنني لم أرد أن أفطر قلبك، لكن إذا كنت تستمعين إلى هذا المقطع، فهذا يعني أنني فطرت قلبك بالفعل، أرجوك سامحيني كثيرًا، لقد ندمت كثيرًا، ندمتُ لأنني تركتك. لا تبكي عليّ أرجوك، فقط ادعي لي بالرحمة، أحبك. ثم أنهى المقطع وأعاده إلى الكيس البلاستيكي وغرسه في جيبه.

البعض ما إن تأثروا بما فعله هذا الشخص حتى أخرجوا هواتفهم وبدؤوا يسجلون مقاطع فيديو لأمهاتهم في مشهد رهيب ومحزن للغاية، كنتُ أستمع إليهم وأشعر كما لو أنني أستمع إلى رسائل انتحار تقطّع القلوب إربًا وأجزاءً.
لقد فقد معظمنا الأمل في النجاة

***

دنا النّهار، وبدأت الشمس في المغيب، ولسوء الحظ، بدأت الريّاح في الارتفاع مرة أخرى، كما لو أن القدر يتفنن في إنهاء حياتنا نفسيًّا أولاً ثم جسديًا أخيرا. خمسُ ساعات تقريبا والقارب يحتفظ بأرواحنا بعد تعطل المحرك. فقدنا الإحساس بأي شيء، حتى العطش اختفى على حين غرة، وحده الخوف كان متربصًا بنا من كل جانب، الخوف من الموت أساسًا.

نعم كنا خائفين من الموت؛ اكتشفنا أننا كنا كاذبين إذ قلنا "الموت في البحر أهون من الموت البطيء في المغرب" ها نحن الآن نفضل أن نموت في المغرب قرب أمهاتنا على أن نموت في البحر بشكل مجهول.

ياللإنسان من كائن ضعيف جدًّا، لا قوةَ إلا قوة الطبيعة، ولا ضعفَ إلا ضعف الإنسان.

غربت الشمس كليًّا، وبدأت تصفع فينا الأمواج من كل زاوية، والماء يتطاير إلى الداخل، ونحن نحاول إفراغه "هذه هي نهايتنا" قلت بينما كان الجميع يردّد "الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله" اشتد الظلام، ولم نعد نرى أي شيء، ولا نعرف من أي جهة كانت تأتي الموجة، كنا نشد على الحزام في حاشية المركب بكلتا يدينا، فتضربنا الأمواج حتى ينغمس مقدم القارب في الماء بينما نحن نقاوم من أجل البقاء، وفي غمرة المقاومة، سمعنا صوت أحد القاصرين في الماء، فلقد أسقطته موجة، رأيته يسبح قريبا مني ويطلب النجدة، فحاول صديقه بداعي الإنسانية أن ينقذه فقفز إليه بسرعة، لكن موجةً أخرى غير رحيمة أبعدته عنه وعنا، فلم أعد أرى أي واحد منهما، فقط، كنت أسمع صوتيهما. كلنا أصابنا الفزع بعد الذي حدث وبدأنا ننادي عليهما "اسبحوا في هذا الاتجاه"

لكن ... اختفى صوت أحدهما "عبدالرحيم، عبدالرحيم .." هكذا كان ينادي عليه أصحابه، وبعد ثواني بدأ يبتعد عنا صوت الولد الآخر شيئا فشيئا!!

لقد أخذهما البحر، و الدور علينا!؟.

لقد ماتا، هل استوعب الجميع ذلك؟!

لقد ماتا !!

من أجل ماذا ماتا ؟؟

لقد ماتا، لا يوجد احتمال ثانٍ!!؟.

ماتا حبًّا في الكرامة.

ماتا حبًّا في العدالة.

ماتا وتركا خلفهما قلوبًا تحترق !!

طفلان.. صبيان.. ما ذنبهما؟!

اللعنة على من كان السبب.

ماتا.. غَرِقَا .. تركا عائلتيهما.. تركا أحلامهما

لقد ماتا!!

دون جنازة؛

دون قبر،؛

دون عزاء؛

دون أي شيء؛

لم يكن البحر رحيمًا بهما تماما مثل وطنيهما!!

الوطن قتلهما؛

وفي البحر دفنا!.

رهبة قاتلة وفزع موحش، بكاءٌ وعويل، دعاءٌ وتسبيح، أمواجٌ غير رحيمة تنتقم منا ببطء، ياالله ماذا فعلنا حتى تقسو علينا هكذا؟؟ ألست رحيما كما يقولون؟!.

موجة أخرى تخطف فتاة منا، أسقطتها في الماء، سمعنا صرخة واحدة فقط، ومنها اختفت فجأة مع العلم أنها كانت ترتدي سترة النجاة، بدأت صديقتها تنتحب وتنادي عليها: هدى.. هدى... حتى بحّ صوتها ثم بدأت تصفع في وجهها غير مصدقة ما تعيشه. التفتت وقالت للفتاة الأخرى: أرجوك أخبريني أنني أحلم، إنني أحلم في الحقيقة.. إني أحلم ثم بدأت تصفع وجهها مجددا.

نطق أحدهم وقال للفتاة شدّي جيّدًا على الحزام، قد تسقطين في البحر أنت أيضا، صديقتك ماتت رحمها الله، ابتلعها البحر وقد يبتلع أي شخص منا.

اتعظت الفتاة مما قاله الولد وهدأت قليلا وحاولت استيعاب ما حدث دون أن تتوقف عن البكاء.

حين سقطت الفتاة في الماء لم يتجرأ أحد على إنقاذها، فالجميع عاين ما حدث لمن كان يريد إنقاذ صديقه.
الخوف من الموت جعلنا أنانيين، في تلك اللحظات لم نعد نفكر سوى في أنفسنا وكيف سننجو لقد هزمنا الموت نفسيا؛ وأثبت لنا -بكل تأكيد- أننا مجرد كائنات أنانية ضعيفة.

الوقوع في البوغاز يعني الموت، خصوصا في الليل وفي طقس مثل هذا على قارب بدون محرك وبدون مجاديف.

لا أحد يريد أن يموت ؟! الكل يهابُ الردى ويقدّس الحياة والعيش رغم الويلات. مرة أخرى أؤكد أن المقولة التي كان يرددها معظمنا "الموت في البحر أفضل من الموت البطيء في المغرب" غير صحيحة، أو بالأحرى كاذبة، إذا سألت أي شخص حينها، هل تريد أن تموت الآن، أم تعود إلى المغرب، سيكون جوابه بكل تأكيد، هو العودة إلى المغرب. ربما ثاني أكبر رهبةٍ يشعر بها الجميع هي العودة إلى المغرب، لكن حتما الرهبة الأطم والأكبر هي الرهبة من الموت، خصوصا وأنت تشاهد الموت أمام عينيك يخطف رِفاقَك من على القارب وحدًا تلو الآخر.

صمدنا أكثر من ساعتين إضافيتين، بعد ارتفاع الرياح وهيجان البحر، فقدنا ثلاثة أرواح خلالها، وكانت هذه هي ضريبة البوغاز التي ضحينا بها قبل أن تبدأ الأمواج في الانخفاض مرة أخرى.

بعد مرور ساعة تقريبا عن انخفاض الأمواج، بدأت تظهر لنا أضواء خافتة من بعيد، البعض يقول لنا إنها إسبانيا، فيما كان يتخيل البعض أنها مدينة طنجة، بينما البعض الآخر كان يقول إنها مجرد سفن!.

بمجرد أن رأى الرّبان الأضواء حتى فتح هاتفه واتصل بالطوارئ، ومن حسن الحظ أن الشبكة باتت متوفرة حينها.
لم يكن الربان يجيد من اللغات سوى العربية، لذا سألنا قبل أن يتصل بالطوارئ من يتحدث الإسبانية ؟!.
كان معنا شابٌ سبق له أن عاش مدة قصيرة في إسبانيا وتم ترحيله، ويتحدث بعض الإسبانية، وهو من ترشح للاتصال بالطوارئ.

قال لهم بالاسبانية " مرحبا، نحن نطلب النجدة، نحن نغرق، لقد توفي ثلاثة أشخاص، نحن مهاجرون من المغرب!. " ثم ترك الخط مفتوحا ليحددوا موقعنا بعد أن طلبوا منه ذلك.

أبشَرَنا الشابُ بأن الطوارئ في طريقها إلينا، كان أحسن خبر نتلقاه في حياتنا، لم نستطع نزع صورة رفقائنا وهم يلتهمهم الموت، لكن عبثا، نحاول تدارك الأمر، بالتفكير في من بقوا أحياء.

كنا نعتقد أن وحدات الإنقاذ ستأتي بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة، لكن لا شيء من ذلك حصل. انتظرنا زهاء ساعة ونصف قبل أن نسمع صوت المروحية وهي تحلّق حولنا، كانت تمر فوقنا مباشرة ثم تتجاوزنا دون أن تتوقف، ما يقارب ربع ساعة تقريبا وهي تحلق في الحيز البحري الذي نتواجد فيه دون أن تسلّط علينا الضوء كما لو أنها لا تلاحظ قاربنا، شغلنا هواتفنا كلنا، وبدأنا في الصفير والعياط بصوت مرتفع ونحن نوجه الضوء للأعلى لكن دون جدوى. اقترح أحدنا فكرة مجنونة وخطيرة، لكن كان لزاما علينا أن نخاطر إذا أردنا النجاة، لم يبق لدينا حل آخر، إما النجاة أو الموت.

أخرجنا الصندوق الذي كان يضع فيه الربان قنان البنزين، ثم سحبنا الحزام المربوط بحاشية القارب وعقدناه بالصندوق الذي حشرنا فيه القلع البلاستيكي وبعض الثياب والقناني والأحذية، ثم سكبنا عليه البنزين وأشعلنا فيه النار، بعد أن تركناه في الماء مربوطا بحزام. و رغم أنّ النّار لم تبقَ سوى دقائق معدودة، إلا أنها أعطت نتيجتها، وبفضلها وجّهت المروحية ضوءَها تجاهنا.

فرح الجميع وراحوا يرددون "الحمد لله، الحمد لله، اللهم صلّ على رسول الله.... " وظنوا أن رجال الإنقاذ سينزلون من المروحية و يحملوننا واحدا تلو الآخر مثلما نشاهد ذلك على التلفاز؛ لكن لا شيء من هذا حصل، بقيت المروحية تسلط أضواءَها علينا لأكثر من ساعة تقريبا وتتبعُنا أينما قادتنا التيارات، لم نفهم أي شيء، وكنا نتساءل لماذا تراها لم تتحرك لإنقاذنا بعد؟!

لم نستوعب شيء حتى رأينا ضوء سفينة كبيرة تتجه نحونا؛ فعلمنا أنها سفينة خفر السواحل ووحدات الإنقاذ. سلّطت علينا مصابيح ضخمة، ثم رمى أحد رجال السفينة الذي كان يرتدي بدلة برتقالية ويضع على وجهه كِمامة، بحبل على قاربنا وطلب منَّا أن نعقده هناك، ثم بدأ يجر القارب حتى التصق بسفينة وحدات الإنقاذ.

" النساء و الأطفال أولا" قال بلغة إسبانية ترجمها لنا ذلك الشاب.

صعدتِ المرأة أولاً مع ابنتها ثم الفتيات ثم بعد ذلك صعدَ الجميع، ثم أُقتيد بنا إلى سطح السَّفينة، وتم تفريقنا إلى قسمين، أمرونا بالجلوس وأعطونا قنينة ماء ولحافًا أحمر توجد فيه علامة الصليب الأحمر بعدها تحركت السفينة بسرعة كبيرة.

أخذنا اللّحاف وفرشناه ثم جلسنا القرفصاء عليه ولَمَمْنَا الغطاء على سائر جسدنا حتى لم يعد يظهر من الجسد سوى الوجه.

تقدم رجل بلباس أحمر وكِمامة على وجهه وسألنا من يتحدث منكم الاسبانية؟! ليشير الجميع إلى ذلك الشاب.
تقدم الشابُ وهو يلم اللّحاف جيّدًا على جسمه، والرفقاء يطلبون منه أن يقول للرجل أننا نريد أن نأكل ونريد أحذية.

بدأ يتحدث مع الرجل زهاء ربع ساعة، وحين أنهى حديثه معه، بدأنا نسأله عن ما دار بينهم. قال لنا إنه سأله عن الثلاثة أشخاص الذين توفوا، وكيف ومتى ماتوا؟؟

- هل أخبرته بأننا نريد أن نأكل؟!
- نعم
- بماذا أخبرك ؟؟
- لا يوجد طعام هنا.
- هل أخبرتهم أننا ثلاثة أيام دون طعام!!
- نعم.
- هل سألتهم ماذا سيفعلون بنا؟؟
- لا، إنهم مجرد وحدات الإنقاذ، سيسلموننا إلى الشرطة، ومن المحتمل أن يعيدونا إلى الديار.

سمعنا الخبر كالصاعقة حتى إن ثلة منا أخرجوا - من حيث لا أعلم- أمواس الحلاقة وبدؤوا يحلقون ذقونهم ولحاهم كي يبدوا من القاصرين ولا يتم ترحيلهم إلى المغرب؛ حيث إن القانون الإسباني يمنع ترحيل القاصرين إلى بلدانهم، في حين أخرج البعض بطاقاتهم الوطنية ثم كسروها ورموها في البحر حتى يبقوا مجهولي الهُوية والعمر.

استغرقت بنا السفينة زهاء ساعة ونصف تقريبا من الطريق، كنا خلالها نستحضر جميع الأحداث التي وقعت والسيناريوهات التي من الممكن أن تقع.

وصلنا إلى ميناء بإحدى المدن الإسبانية، صعد رجل عربي إلى السفينة هو الآخر يضع كِمامة على وجهه، وسألنا بلهجة سورية: من منكم مريض؟!

الجميع رفعوا أصابعهم وبدأ كل واحد منهم يصرّح بمرضه " أنا مصاب بالسُكري، أنا أعاني من تشنج في المفاصل.. قروح..غثيان..برودة.. جروح..إصابات من هنا وهناك."

قال لنا: حسنا، الآن ستشكلون طابورا و سيخبرني كل شخص منكم بعمره الحقيقي.

ثم التحقت به فتاة إسبانية تحمل دفترا وقلما في يدها.

شكلنا طابورا فيما بيننا، ونحن نلتحم في الغطاء الذي أعطته لنا وحدات الإنقاذ.

كان يتقدم الواحد تلو الآخر بمشية البطريق مداراة لبرودة الأرضية، يسجل عمره ويمضي دون أن يكتب اسمه. وعلى هذا الأساس، إما أن يذهب مع مجموعة القُصّر أو مع البالغين فضلا عن مجموعة للجنس اللطيف.

معظم الأشخاص، أدلوا بعمر صغير، على الرغم أنهم ليسوا بقاصرين، في حين البعض لم ينجح معهم ذلك، حيث أكتشف أنهم يكذبون، فكان أن تم أمرهم بالالتحاق بمجموعة البالغين.

ما إن نزلنا من على ظهر السفينة، حتى وجدنا الصِّحافة والشرطة ومنظمة الصليب الأحمر تنتظرنا. تم اقتيادنا إلى صالة كبيرة بعد أن فصلونا عن المجموعة التي تضم القاصرين والفتيات. وبعدها بدأوا بالمناداة على أربعة أفراد فأربعة أفراد. دخلت وأيوب وسمير وصديق آخر إلى خيمة متوسطة الحجم، أدلينا بمعلوماتنا الشخصية، الاسم والنسب والعمر والدولة وهل نعاني من أي مرض، كانت الفتاة التي تدوّن هذه المعلومات تنطق كلمات بالعربية، مثل عمرك واسمك، كما أنها تتحدث الإنجليزية.

بعد أن دوّنا معلوماتنا، أمرنا شاب يعمل مع منظمة الصليب الأحمر بمرافقته إلى خيمة أخرى، هناك حيث نزعنا ثيابنا المبللة جميعها، وارتدينا لباسا جديدا وحذاء وجوارب ساخنة. كان أيوب يخبئ بعض اليوروهات في حزام تبانه، فلم يشأ أن

ينزعه وارتدى عليه التبان الآخر، لكن الشاب فطن به وأمره بنزعه، فانتشل أيوب المال خفية وارتدى التبان الجديد.
بعدها مباشرة تم وضعُ أصفاد في أيدينا، وذهبوا بنا مشيًا مسافة مائة وخمسين مترا حيث توجد حافلة بيضاء غريبة.

كان الشرطي يشدُّ على يدي بعنف وقوة، كيلا أفكر في الهرب، صعدت إلى الحافلة المكوّنة من عدة مخادع، وكل مخدع كان يحتوي على كرسيين، فتح الشرطي المخدع ونزع الصفد من على يدي وأقفل عليّ الباب.

قبعت في ذلك المخدع الذي كان مصنوعا من الحديد مثل زنزانة انفرادية، كنت أسمع أصواتا من هنا وهناك، ناديت "أيوب، أيوب ..." ليرد " أنا هنا، لقد أقفلوا علي في هذه المخدع..ماهذا يا هذا؟!".

ما إن تأكدنا أننا جميعنا هنا حتى خفَّ القلق.

تحركت بنا الحافلة الغريبة ما ينوف عن أربعين دقيقة تقريبا ثم توقفت. صعد نفس شرطي، ففتح عليَّ المخدع ثم أعاد الصفد في يدي، وأدخلني إلى مركز الشرطة وكذلك فعل مع البقية. أجلسونا على الأرض مباشرة، ومن كان يرفض الجلوس بسبب برودة الأرض يتم تعنيفه بالقوة، بقينا مفترشين الأرض زهاء ساعة من الوقت، كان حينها الجو باردا وكان يتحتم علينا أن نبقي مؤخراتنا مباشرة على الأرضية الباردة؛ لأن وضعية القرفصاء هي الأخرى غير مسموح لنا بها، فقد كانت أعين الشرطة منصبة على كل حركة نقوم بها.

لم تكن لدي أدنى فكرة لماذا تراهم تصرفوا معنا بهذه الطريقة المحتقرة؟؟

سمير الشّاب الذي يعاني من مرض السُّكري فقد وعيه دون أن يلاحظه أحدنا، رأته شرطية فخيّل لها أنَّه نائم، تقدمت أمامه وقالت له بصوت مرتفع "انهض..انهض" التفتت إلى سمير وقلت لها بالانجليزية "لقد فقد وعيه" لكنها لم تفهم فترجم لها الولد الذي يجيد القليل من الإسبانية، ثم اتصلت أخيرًا بالإسعاف.

قلت بانفعالٍ حاد: شرطية ولا تستطيع أن تميز بين النوم والغيبوبة.

أعقب أحدهم: الحمد لله أنه فقد وعيه هنا وليس على متن القارب وإلاّ كان قد مات حتمًا.

بعد مضي أكثر من ساعة من امتصاص برودة الأرض، تم اقتيادنا إلى غرف بمركز الشرطة، كل سبعة أشخاص في غرفة، وقبل ذلك تم تفتيشنا وأخذوا منا الهواتف وكل ما نملك من أشياء.

كانت الغرفة تحتوي على سرير طويل من الإسمنت، يوجد به فراشان للنوم، وفي الأرض كانت هناك خمسة أفرشة، وكاميرا معلقة في الأعلى.

كل واحد منا استلقى في مكانه وهو يفكر في الطعام، باتت أمعاؤنا تتحرق شوقا إلى الطعام وإلى الطاقة التي لم يبق لها وجود سوى الاسم، كنا في مسْغبةٍ مهولة لدرجة لو أحضروا لنا خروفا حيًّا لأكلناه حينها؛ هكذا فعل بنا الجوع، كما لو أننا لم نأكل مدة شهر!!

بعد نصف ساعة تقريبا، اقتحمت شرطية الغرفة ومنحتنا عصيرا صغيرا وعلبة صغيرة من البسكويت. كان طعاما قليلاً جدًّا، لكنّه على الأقل أسكت قرقرة المعدة وجعلنا ننام.

حين دخلنا إلى تلك الغرفة لم يكن بمقدورنا معرفة الليل من النهار، فالضوء يبقى مشتعلا ٢٤ /٢٤ ساعة. قبل أن ينام الجميع قال لنا الربان الذي كان يتواجد معي في الغرفة بأن ننادي عليه باسم الروبيو؛ حتى لا تفطن الشرطة أنه هو من كان يقود القارب.
غرقنا في نوم عميق حتى إننا لم ندرِ كم نمنا، لو أخبرونا أنّنا نمنا مدة أسبوع كنا سنصدقهم، فقد كنا مرهقي التَّفكير والجسد والقلوب والعقول.
وبينما كنت غارقًا في النوم أيقظني صوت أحدهم بجانبي في الغرفة وهو يهذي قائلا: سأموت، سأموت... وداعًا أمي.." قمتُ مفزوعًا وبدأت أهدّئ من روعه وأخبرته أنه مجرد حلم مزعج، فعدت وإياه إلى النوم مجددا، ولم نستيقظ إلا على صوت مزلاج الباب الضخم وهو يفتح، قمنا مذعورين كأننا نعيش أحداث كابوس مرعب، لم نستوعب بعد أننا نجونا من الموت، خيل لنا أننا في الجحيم نحاسب على الذنوب التي ارتكبناها في الدنيا.

دخلت شرطية شابة تبدو ملامحها جدية، وأعطتنا -هي الأخرى- قنينة عصير، وعلبة بسكويت صغيرة.

بدأنا نتحدث معها بلغة الإشارة وبعض الكلمات المتفرقة من الإسبانية التي نحفظها.

- mucho comida , Mucho hambre
- por favor señora

أجابتنا بلغة إسبانية سريعة فهمنا منها كلمتين اثنتين فقط comesaría و Hotel أي أنها ربما قالت، هذا ليس مطعمًا إنه مركز شرطة، ثم أوصدت الباب من جديد.

شربنا العصير و التهمنا البسكويت بلهفة و انخرطنا في الحديث عن ما سيفعله هؤلاء بنا. كنت أشعر بعياء في جميع أنحاء جسدي، ورأيت جروحًا لا أعرف متى تعرضت لها، قلت لرفقائي في الغرفة إن بي جروحًا لست أدري من أين أتت، ليعرض كل واحد منهم، خريطة من الجروح في سائر أنحاء جسدهم. قال لنا الروبيو "الربان" إن السبب هو السباحة في الشط المليئ بالصخور الحادة.

مر من الوقت ما يقارب نصف ساعة حتى فُتح الباب مرة أخرى، وزّعت علينا نفس الشرطية سبع علب من البطاطس الممزوجة بصلصة الطماطم. فتحنا العلب فإذا هي تنبعث منها رائحة ليست جيدة، البعض منا ما إن أمسك بالعلبة حتى فتحها بشكل سريع وبدأ في التهامها عن آخرها، والبعض بدأ يبحث عن تاريخ انتهاء الصلاحية، وحين وجدوا أنه لم ينتهِ بعد، أكلوا جزءا منها، في حين تقزّف البعض من رائحتها ولم يأكلها، وتمنى فقط ذلك العصير والبسكويت.

أحدهم قال: هل هذا ما يأكله الإسبان؟؟
أجابه أخر بمثل ما قلته الشرطية: لا، هذا مجرد مركز للشرطة وليس مطعمًا.
علق آخر: الطعام الإسباني معروف على صعيد العالم.

قطع النقاش صوت الباب وهو يفتح مرة أخرى، قال الجميع:" نتمنى أن يكون طعاما جيدا هذه المرة".

دخلت نفس الشرطية خاوية الوفاض وطلبت أن يرافقها أحد منا؛ أشارت على من كان قرب الباب.

قام وهو يقول بلباقة وابتسامة على وجهه: ok señora

أغلقت الباب وتركت وراءها وابلاً من الأسئلة، قال لنا روبيو: الآن سيتم تبصيمنا، إذا سألوكم من هو ربان القارب أخبروهم أنكم لا تذكرون شيئا.

لم تكد تمر نصف ساعة حتى دخلت علينا الشرطية بجانب رفيقنا، ثم طلبت شخصًا آخر و ما إن أوصدت الباب مجددا، حتى بدأنا نستنطق الرفيق ونسأله: ما هي الإجراءات التي قاموا بها معك؟؟ ماذا قالوا لك؟؟ هل استفسروك عن شيء؟؟ هل سيتم ترحيلنا؟؟.
قال لنا إنه تم تبصيمه، والتقطوا له صورا من كل زاوية، هذا كل ما في الأمر.

بعد أن انتهوا مع الشخص الثاني، نادت علي الشرطية، رافقتها إلى صالة كبيرة يتواجد فيها مكتب صغير على اليمين. جلستُ في كرسي أمام المكتب، وبدأ يسألني شرطي يافع عن الاسم والنسب والعمر والدولة، ومن حسن الحظ أنه كان يتحدث القليل من الإنجليزية.

بعد أن ملأت الإستمارة، أمضيت في ثلاث ورقات كلها مكتوبة باللغة الإسبانية؛ أي أنني أمضيت على أوراق دون أن أعرف علامَ أمضيت، والغريب في الأمر أنه لم يكن يتواجد أي مترجم.

بعد أن وقّعت على الورقات الثلاثة، رافقني شرطي آخر، إلى الزاوية المعاكسة من الصالة؛ هناك حيث تم قياس طولي، والتقاط صور لي من كل جانب، وبعدها وضعت بصمات لجميع أصابعي؛ ثم أرجعوني إلى الغرفة، وهكذا فعلوا بالبقية.

حين انتهت العملية، كان الجميع في الغرف يقولون إنها إجراءات الترحيل، كانت الغرف متقاربة مع بعضها البعض، الشيء الذي يجعلنا نتحدث مع بعضنا كما لو أننا في غرفة واحدة. أصابنا قلق كبير بعد أن انتشر خبر التّرحيل فيما بيننا. كان الذي أشاع الخبر، هو ذلك الولد الذي يجيد الإسبانية، ويعرف مثل هذه الإجراءات.

لقد ماتوا ثلاثة أشخاص أمام أعيننا، ورأينا الموت يتربص بنا من كل جانب، وفي الأخير سيتم ترحيلنا بكل برودة!! أين هي الإنسانية التي يتغنون بها في الإعلام؟؟
قال أحدنا: أقسم بالله سأقفز من السفينة !!
قال آخر : أقسم بالله سأشنق رأسي أمامهم وهو يشاهدون!!
رد آخر: لن أعود إلى المغرب؛ لا أتحمل فكرة الترحيل، بعد كل هذه المعاناة!!
عمّ على الغرفة يأس كبير، فبعد كل هذا العذاب سنُرَحّل إلى المغرب، البلد الذي هربنا منه، وكادت أرواحنا أن تقبض في سبيل الفرار منه.

اتفقنا كلنا على الهرب من مركز الشرطة، فكما غامرنا في البحر أمام الموت، يمكن أن نغامر مع الشرطة، استقرت الفكرة في أذهاننا، وبقى أن نفكر فقط كيف السبيل إلى تطبيقها؛ الوحيد الذي كان قد عارض فكرة الهرب هو الروبيو "الربان".

قال الرفيق الذي ينام بجانب الروبيو: أنت أساسا تريد العودة إلى المغرب، وتريد أن تعيدنا معك.

رد الروبيو: ليس هناك أي عودة، سيطلقون سراحنا، إسبانيا لم تعد تُرحّل المهاجرين عن طريق البحر، لقد قرأت اتفاقية وقعها ملك المغرب مع ملك إسبانيا.

كان الروبيو غير مقتنع بفكرة الهروب، كما قال لنا بأنه يستحيل الهروب من مركز الشرطة، ثم أضاف: يمكنكم أن تطلبوا اللجوء، لن يعيدوكم إلى المغرب في هذه الحالة.

رد عليه الرفيق الذي يستلقي على شماله: اللجوء يُعطى فقط للصحافيين والعسكريين والمعارضين السياسيين .
علق آخر: إذا طلبت اللجوء لن تحلم أن ترى وجه أمك مرة أخرى.

أتعبنا التفكير في تلك الساعات، وتحتم علينا التفكير في طريقة مناسبة للهروب؛ فكما هربنا من شرطة المغرب، يمكن أن نهرب من شرطة إسبانيا.

طرقت الباب وأنا أنادي على الشرطية باسم señora. . señora

فتحت الباب وأخبرتها أنني أريد أن أذهب إلى الحمام، أغلقت الباب من ورائي، وتبعتها حتى المرحاض، دخلت فإذا بنافذة تشغل تقريبا أربعين سنتمترا مربعة في واجهة المرحاض، بها زجاج بلاستيكي مزدوج، أزحت النصف الأول محاولاً رؤية ما يوجد في الخلف، فإذا بساحة واسعة وبنايات في الجانب، صعدت على حاوية الأزبال بعد أن قلبتها ثم أدخلت رأسي كله، من أجل توسيع نطاق الرؤية، لأكتشف أن المساحة بين النافذة والأرضية عالية جدا، كما أن الساحة مربعة ولا مكان للهروب منها. وعليه، خلصت أن الهروب من هذه النافذة فكرة غبية وبليدة ثم خرجت من المرحاض فلم أجد أحدا ينتظرني أمام المرحاض!!.

كانت هذه هي فرصتي في الهروب، لكنني لم أفعل، ناديت على الشرطية مرة أخرى بنفس الاسم señora فخرج شرطي ما يزال شابا من مكتب يبعد عن المرحاض بأمتار قليلة ثم رافقني إلى الغرفة المشؤومة.

أخبرت الرفاق بأن في المرحاض توجد نافذة يمكن أن نهرب منها، لكنها مرتفعة جدا عن سطح الأرض، كما أننا لا نعرف أين تقود تلك الساحة.

ما إن سمع الرفاق ذلك حتى تحمسوا لرؤيتها، فكان كل ربع ساعة، ينادي أحدنا على الشرطي من أجل مرافقته إلى المرحاض، ليخلصوا في الأخير إلى نفس النتيجة، وهي أنها فكرة غير سديدة.

كنا نتواصل مع الرفقاء في الغرفة الأخرى، ونتحدث عن الهروب، قلت لأيوب كلمات مشفرة، وأخبرته أن يوصلها إلى مجموعته.

صحيح أنهم لا يفهمون العربية، لكن من الممكن أن يحضروا مترجمًا في أي وقت ويفهم كلامنا.

قلت لأيوب: هل تذكر صديقنا الفأر.
ليجيب: نعم "الفأر" هو الحل.

عبارة "الفأر" هو اسم ننادي به أحد أصحابنا من الحي الذي كبرنا فيه، هو الآخر جاء إلى إسبانيا على متن قارب مطاطي، وقد ألقت عليهم الشرطة القبض في البحر، وقضوا في مركز الشرطة ثلاثة أيام، وحين كان يهمون بترحيلهم هربوا

بشكل جماعي في نفس اللحظة، البعض منهم استطاع فعلا الهرب والبعض ألقي عليه القبض، وصديقنا هذا فر بجسده ولم يعقب.

الخطة تنفذ بالضبط أمام مركز الشرطة، حين يتم نقل المهاجرين غير الشرعيين إلى المحكمة أو إلى مركز المهاجرين وبعدها إلى المغرب، فرصةٌ وحيدةٌ يجب أن يستغلوها في الهروب بشكل جماعي في نفس اللحظة، صحيح أن نسبة قليلة هي من ستنجح؛ لأنها تعتمد على الحظ والسرعة، بيد أن هناك من سينجح بكل تأكيد.

وافق معظمنا على هذه الفكرة، وبدأنا ننتظر بفارغ الصبر متى سيحين وقت الهروب، أما من رفض الفكرة، فقد كانوا بالنسبة لنا جزءا رئيسيا من الخطة، الربان ومساعده وثلاثة رفقاء قالوا إنهم سيطلبون اللجوء السياسي، سيكونون حصان طروادة نحتمي بهم، فبمجرد أن نعلن الفرار، حتى تنقسم الشرطة، النصف سيتبعنا والنّصف الآخر سيحاول حراسة البقية خوفا من هروبهم.

كنا نرسم الخطة، ونضع جميع الاحتمالات السيئة التي من الممكن أن تحدث، في حين كنت أفكر في خطة أخرى؛ بيد أنها لا يمكنها أن تكون جماعية أو حتى لشخصين اثنين، إنها تعتمد على الحظ لا أكثر، ولا يمكن أن أخبر بها أي شخص.

كانت الاحتمالات السيئة في الخطة الأولى كثيرة جدا، وتعتمد على السرعة، وأنا بالكاد أمشي بشكل مستقيم، ما أزال أشعر بتشنجات في ساقي وركبتي والتي ستخذلني أمام الشرطة بكل تأكيد.

لم أخبر أي أحد بذلك، حيث إن طريقة الهرب لا يمكن أن تحدث أكثر من مرة!!.

ناديت على الشرطي واستأذنته في الذهاب إلى المرحاض، دخلت ونظرت إلى النافذة لأعرف ماهو التوقيت بشكل محدد، وهل يسمح لي بالهروب أم لا؟؟ كان الوقت حينها هو الغروب، فكرت مليا هل هذا وقت مناسب أم لا؟؟ كنت أفضل النهار على الليل، مع ذلك قررت تطبيق الخطة.

فتحت باب المرحاض فلم أجد الشرطي " كان كل من يخرج من المرحاض ينادي على الشرطي من مكتب مجاور" ولم أنده عليه، وبكل ثقة بالنفس ترجلت بخطىً مستقرة في الاتجاه المعاكس للغرف، وبعد عشرين مترًا وجدت على اليسار درجا

ينزل إلى الأسفل، نزلت معه دون أن أعرف أين يتجه بي، قادني الدُّرج إلى بهو به مكاتب وأناس مدنيون يجلسون في الخلفية، رأيت شرطيًّا في الجهة المقابلة، فأسرعت الخطى وجلست حيث يجلس هؤلاء. مر من أمامي دون أن يلاحظ أي شيء، كان قلبي يخفق وكنت أفكر في احتمال أن يعلن الشرطي حالة فرار من المرحاض أكثر من تفكيري في الهروب.

قرأت في إحدى الجوانب عبارة salida وفي الجانب الآخر عبارة Entrada خمنت أنهما يعنيان الخروج والدخول، لأن العبارتين قريبتان من اللغة الفرنسية. رجعت من الجهة التي أتيت منها وانزويت جهة اليمين، لأخرج في صالة كبيرة، على اليمين كان يتواجد شرطي يشغل مكتبا في الاستقبال، وفي الجهة المعاكسة، كان هناك مكتبان من الزجاج توجد فيهما شرطية وشرطي، تقدمت نحو الباب مباشرة؛ حيث أي ارتباك من شأنه أن يقلب كل شيء ضدي، لم أنظر إلى الشرطي ولا أدري بماذا كان مشغولا حتى لم يلاحظ بوجودي.

فُتح الباب الأوتوماتيكي وخرجت، وأخيرا، نجحت في الهرب بأقل الخسائر!!

كنت أعرف أن الشرطة ستكتشف هروبي وستعلن حالة فرار، وسيبحثون عني، وكنت ملزمًا أن أبتعد ما أمكن عن تلك المنطقة، وأحرص كل الحرص على عدم المرور من الطرق الرئيسية.

لم أكن أعرف أين أتواجد حينها، كما لم أكن أعرف ماهو تاريخ اليوم بالضبط، خرجت خاويَ الوفاض بدون هاتف وبدون مال، كنت أسرع الخطى أكثر فأكثر كي أبتعد عن مركز الشرطة، هذه كانت غايتي في تلك اللحظة.

كانت تلك المدينة هادئة جدا، لا توجد سيارات كثيرة، فقط أناس قلائل يمرون بجانبي كما لو أنني غير موجود. كانت المدينة كلها مضاءة تلك الليلة بأبهى الألوان، ومعالم الاحتفال برأس السنة ما تزال مبثوثة في جميع الطرقات.

كان الطقس باردًا جدًّا، والثياب التي أرتديها خفيفة، لكنها على الأقل لم تكن كالثياب المبللة التي كنت أرتديها في البحر، كما أنني في حركة مما يقلل الشعور بالبرد، مشيت في تلك الليلة ما ينوف عن أربع ساعات دون توقف، أي ما ينوف

عن عشرين كيلومترا تقريبا حتى وصلت إلى "مدينة أو مقاطعة أو منطقة.. " اسمها Guadiaro هكذا كنت أقرأ العبارة في جميع المسارات التي أخذتها:

Guadiaro ⬆

Guadiaro ↖

Guadiaro ↗

Guadiaro ➡

Guadiaro ⬇⬇

وهكذا تتبعت المسارات حتى وصلت، كانت مدينة أكثر هدوءا من المدينة التي هربت منها، شعرت بالعياء وبدأت أبحث عن مكان للنوم، كنت فقط أريد أن ألتقي بشخص مغربي يقدم لي يد المساعدة في تلك الليلة، لكن لسوء الحظ، لا وجود لا لمغربي ولا جزائري ولا حتى إسباني.

مررت قرب حاوية الأزبال المخصصة بالورق والكارتون، تأبطت ثلاث قطع من الكارتون، وذهبت إلى حديقة في إحدى الشوارع غير الرئيسية، اخترت زاوية مظلمة وفرشتها على شكل صندوق وهممت بالنوم، وما هي إلا بضع دقائق حتى سمعت صوتا لرجل مغربي يتحدث مع نفسه وهو في غاية السكر، يقول: أوروبا دمرت حياتي، ثم يعيدها مرات ومرات..!!

لم أنبس بكلمة واحدة، وتركته يهذي مع نفسه، ثم حاولت النوم وكلما شعرت بالبرد من جانب، أنقلب إلى الجانب المعاكس. مع ذلك استطعت النوم وتوفير بعض الراحة للجسم والعقل. نمت ولم استيقظ حتى شعرت بالماء ينساب من تحت جسدي، كان التوقيت فجرا ساعتها، تخيلت نفسي في البحر، فثيابي مبتلة، ظننت أني أحلم، بيد أنه لم يكن حلما، أنا لست في البحر، وثيابي فعلا مبللة. قمت ورأسي يؤلمني، دوار شديد وغثيان، أسمع صوت الأمواج، مع العلم أنني لا أرى سوى الأشجار أمامي. الحديقة كانت كلها مبتلة، ليست بسبب الشتاء، بل بسبب رشاشات السّقي، التي تعمل فجر كل يوم.

المغربي الذي كان يهذي البارحة، بدا و أنه يعرف ذلك جيدا، لذا اختار كرسيا واستلقى عليه، لم يكن يظهر منه سوى الوجه، فقد كان ملفوفًا في بطانية كبيرة. اقتربت منه أكثر فإذا هو نائم يشخر، رأيت كيسًا بلاستيكيا مشدودا على حاشية الكرسي حيث يضع رأسه، رأيت فيه ثلاث برتقالات وخبزا وعصيرا صغيرا وعلبة تونة. كنت أشعر بجوع شديد، لذا لم أتوانَ لحظة واحدة في سرقته.

بدأت أقنع نفسي بأن هذه السرقة ليست جريمة، فأنا أريد أن آكل فقط.

ابتعدت قليلا منه، ثم فتحت الكيس البلاستيكي، ومن حسن الحظ أنني وجدت علبتي تونة وثلاث برتقالات، فتحت علبة تونة وأكلتها مع قطعة صغيرة من الخبز، ثم أكلت برتقالة واحدة وشربت العصير الذي لم يعجبني مذاقه، وحين أنهيت طعامي، أخذت علبة التونة والشطر الذي بقي من الخبز بالإضافة إلى البرتقالتين، وجمعت الكلّ في الكيس وهممت بإرجاعه إلى مكانه، وقلت مع نفسي، على الأقل حين سيستيقظ هذا الرجل سيجد ما يأكله؛ وهذا بالفعل ما فعلت.

بقيت في تلك الحديقة حتى بزغ النّهار، أفكر أين سأذهب وماذا سأفعل؟!

فكرت أن أول شيء يجب أن أفعله هو تغيير الملابس، ليس لأنها مبتلة، ولكن لأنها مثيرة للشبهة ومعروفة عند الشرطة.

خرجت من الحديقة دون أن أتخلص من صداع الرأس، أطبق المثل الألماني الذي يقول "إذا لم تعرف أين تتجه، فكل الطرق تفي بالغرض" مررت بشارع رئيسي، فوجدت الناس ينامون أمام البنوك، استغربت من ذلك، هل تراني في أوروبا؟؟ أليست أوروبا بلاد حقوق الإنسان، إذن لماذا هؤلاء ينامون في الشارع في هذا البرد القارس؟؟ أليست هنالك هيئات وجمعيات حقوقية!؟ واصلت السير بغير وجهة، مررت بجانب قنطرة، فرأيت صفوفًا من البشر ينامون تحت القنطرة، شددت في رأسي وقلت هل أنا أحلم؟؟ لماذا ينام هؤلاء تحت القنطرة، وكيف ينامون والسيارات تتقاطع فوق رؤوسهم؟؟ لم أستوعب أي شيء، واشتد الصداع في رأسي!!

لمحتُ حديقة صغيرة تبعد عن القنطرة بأمتار فجلست فيها أعيد صياغة الأحداث. أمام تلك الحديقة كانت هناك حاويات أزبال مصفوفة على الطريق، وكان يتناوب عليها عدد من الأشخاص يركبون دراجات هوائية، يفتحون حاويات الأزبال ثم يغرسون رؤوسهم فيها ويأخذون ما يمكن أخذه في مهانة مقيتة!!

لم أفهم شيئا حينها، وشعرت بالرعب في نفسي، وطرحت سؤالا استنكاريا، هل هكذا يعيشون في أوروبا؟؟

امتلأ رأسي بالأفكار ولم أعد قادرا على التفكير ولا على ماذا سأفعل، غادرت تلك الحديقة، وبدأت أتمشى صوب زقاق به منازل تشبه المنازل بالمغرب، قلت مع نفسي لربما أجد مغربيًّا يمكنه أن يساعدني، مررت بمحل تجاري، فإذا بي أسمع أشخاصا يتحدثون باللهجة المغربية، دخلت إلى المحل التجاري وألقيت عليهم السلام.

ردوا عليّ السلام وهم ينظرون إليّ باستغراب أو استحقار لست أدري !! كانوا ثلاثة زبناء بالإضافة إلى صاحب المحل.

قلت لهم إنني جديد هنا في إسبانيا، لتو "خرجت" من مركز الشرطة، وإنني لا أعرف أي شيء ولا أملك أي شيء.

وكعادة المغاربة طرحوا عليّ وابلاً من الأسئلة، من أي مدينة أنت ؟ وكيف جئت إلى هنا ؟ وبكم؟؟ و كم ساعة قضيت في البحر ؟؟ وهل عندك عائلة في إسبانيا ؟ وغيرها من الأسئلة التي لم تطرحها عليّ الشرطة و طرحوها هم.

أجبت على أسئلتهم باختصار شديد، ثم طلب مني صاحب المحل أن أجلس على كرسي، ريثما ينتهي مع زبنائه، وسألني إذا ما كنت قد تناولت الفطور أم لا؟؟ لأجيبه -كذبًا- بالسلب.

غادر الثلاثة الذين أنهكوني بالأسئلة دون حتى أن يقولوا لي مع السّلامة !! وبعد دقائق دعاني صاحب المحل إلى الفطور، شربت الشاي والخبز وقليلا من الزيت، وحين أنهيت فطوري الثاني منحني سيجارة وطلب مني أن أدخن في الخارج، بيد أني أخبرته بأنني لا أدخن.

سألته قائلا: هل تملك انترنت في هاتفك، أريد أن أتحدث من عائلتي، لا شك أنهم قلقون علي، كما أنهم ليسوا على علم بأنني هنا.

قال لي: هات الرقم الذي تريد الاتصال به؟؟
قلت: لا أحفظ أي رقم !!
قال: إذن كيف تريد الاتصال بعائلتك؟؟
قلت: سأترك لوالدتي رسالة على فايسبوك، أحتاج فقط إلى انترنت!؟

منحني هاتفه، فأدخلت بريدي الإلكتروني والقنَّ السري، ثم دخلت إلى موقع فايسبوك. لم أجد أي رسالة، فأرسلت إلى والدتي وأخي ما مُفاده أنني أتواجد في إسبانيا وأنني بخير، وبعدها مباشرة سجّلت الخروج وأعدت الهاتف إلى صاحبه.

سألني صاحب المحل: الآن ماذا ستفعل ؟!
أجبته: في الحقيقة لا أعرف .
قال لي: هذه هي "الغربة " الكل يعاني في البداية، ما عليك سوى الصبر، يمكنك أن تذهب إلى المسجد، هناك يمكن للناس أن يساعدوك.

فهمت جيدا الرسالة المشفّرة، وقلت له والحشمة تعتلي وجهي، أريد فقط أن أغيّر ملابسي، إذا رأتني الشرطة بهذه الثياب ستلقي عليّ القبض لا محالة.

قال: لا، لا تخف، الشرطة هنا لن تلقي عليك القبض ما لم تفعل شيئا غير جيد، نصف من يقطن هنا، لا يملكون أوراق الإقامة.

فهمت الرسالة الثانية التي أكدت فهمي للرسالة الأولى!!
شكرته على المساعدة وودّعته ثم هممت بالخروج، غير أنه طلب مني الانتظار، أخذ كيسا بلاستيكيا ووضع فيه ثلاث علب من التونة وقطعة خبز وعصيرا من البرتقال، ثم أعطاني إياها وقال لي: هذا ما يمكنني مساعدتك به.

أخذت منه الكيس وطلبت منه أن يدلّني على طريق المسجد.

قال لي: صلاة الظهر لا يحضرها أناس كثر، لكن يمكنك أن تتحدث مع الإمام ومن تم تعود في المساء. ثم بدأ يصف لي الطريق إلى المسجد الذي كان يتواجد غير بعيد عن محله.

شكرته مرة أخرى ومضيت إلى الخارج أتتبع المسار الذي رسمه لي، حتى وصلت إلى الشارع الذي قال إن المسجد يتواجد فيه.

بحثت بادئ الأمر فلم أجد أي مسجد حتى ظننت أنني أخطأت الطريق؛ كان ذلك الحي عبارة عن تجمع سكاني يقطنه العرب فقط، منازل مثل حي شعبي بالمغرب؛ لدرجة خيل لي معها أنني ما أزال في المغرب.

سألت شخصا مرّ بجانبي عن المسجد، فقال لي، لقد تجاوزته بأمتار، وأشار لي إلى لوحة كبيرة مكتوب عليها "الجمعية الإسلامية" تعجبت هل هذا مسجد أم جمعية؛ حيث لا شيء كان يدل على أنه مسجد!!

سألته: هل يقيمون الصلاة هنالك ؟؟
أجاب: نعم، إنه المسجد الذي تقام فيه الصلاة.
شكرته ثم دخلت إلى المسجد، وتوجهت إلى مكان الوضوء الذي كان يتواجد في الأعلى، وجدت الماء دافئا، فقررت أخذ دوش سريع، لم يكن هنالك أي شامبو أو منشفة، فاكتفيت فقط بالصابون ونشفت جسمي بفوطة اليد ثم عدت إلى نفس الملابس.
شعرت بقليل من الراحة نتيجة الماء الدافئ الذي كان يحتاج إليه جسمي في تلك اللحظة أكثر من أي شيء آخر.

نزلت من الدرج، واتجهت إلى مكان الصلاة؛ انتظرت حتى جاء الإمام وأقام صلاة الظهر، وحين انتهى من الصلاة وخرج الناس، يمّمت وجهي إليه وألقيت عليه السـلام.

كان الإمام في الخمسينيات من عمره تقريبا، تحدث معي بلباقة وأدب، خصوصا بعدما أخبرته أنني أحفظ القرآن.

أُجبرت غير مخيّر أن أحكي له قصتي هو الآخر باختصار شديد، وسألته قائلا: هل تعرف مسجدًا يُحتاج فيه إلى إمام، أو إلى مدرس لغة عربية لأبناء الجالية؟؟

قال لي: في هذا الوقت تحديدا لا أعرف، لكن سأسأل حول الموضوع. ثم أضاف: إذا بقيت هنا حتى شهر رمضان سنحتاج إلى إمام إن شاء الله.

هذا ما أخبرني به ثم أظهر لي علامات الاستعجال!؟

استأذنته في البقاء حتى صلاة العصر في المسجد فقال لي بصريح العبارة: يمكنك أن تبقى وترتاح هنا، لكن في الليل لا تستطيع النوم، الدولة تمنع ذلك.

قلت له لا مشكل، ثم مضى وتركني.

استلقيت في إحدى الزوايا، ونمت حتى أيقظني شاب ملتح في مقتبل العمر.

- أخي، أخي.. انهض إنه وقت صلاة العصر، سيأتي المصلون حالا..

كنت أغط في نوم عميق ومريح، وذلك بسبب الاستحمام بالماء الدافئ الذي يريح قليلا من الإجهاد ويقلل آلام الجسم، ويهدئ الجهاز العصبي.

نهضت معتذرا للشاب، وأوضحت له أني استأذنت من إمام المسجد، فلم يبدِ الشاب الملتحي أي رد سيئ، قال لي بلباقة: لا يوجد أي مشكل، هل أنت جديد في اسبانيا؟؟

أجبته بالإيجاب.
سألني: هل تعرف أحدا ما هنا؟
قلت له: لا أعرف أي أحد هنا، كما ليس لدي أي مكان أبيت فيه.
قال لي: لا يمكنك أن تنام في المسجد هل تعرف ذلك؟؟
قلت: نعم، لقد أخبرني الإمام بذلك، قال لي إن ذلك ممنوع .
قال: سأتصل بصديق لي، الأسبوع الفائت فتح "منزل للبنك" ربما يمكنك أن تبيت معه هذه الأيام ريثما ترتاح قليلا.

كان خبرا مفرحًا أثلج صدري، شكرته كثيرا على الرغم أنني لم أفهم ماذا كان يقصد ب "منزل للبنك".

اتفقت معه أن نلتقي في المسجد وقت صلاة المغرب، وحينها سيعرّفني بصديقه الذي سأنام في منزله هذه الليلة.

يالله وأخيرًا سأظفر بدوشٍ ساخنٍ ونوم هانئ، منذ أن أخبرني بذلك وحتى وقت صلاة المغرب وأنا أتخيل فقط الدوش والماء الساخن وهو ينساب على جسدي، فقد كنت أشعر ببرودة عارمة في جميع مفاصلي، كما أن الطامة الكبرى أنني بدأت أعاني من البواسير والرشح.

عندما حان وقت صلاة المغرب، كنت بالضبط أتحدث مع الشاب الملتحي وصديقه الأسمر، أخبرني هذا الأخير أنه بعد الصلاة سيرافقني إلى المنزل.

صليت صلاة المغرب وعقلي يفكر فقط في الاستحمام والطعام!!

حين أنهينا صلاة المغرب رافقته إلى المنزل الذي كان يبعد عن المسجد زهاء ربع ساعة فقط. صعدنا إلى عمارة وكلي فرح، وصلنا إلى شقة على بابها سلسلة كبيرة، بدأ يسحبها بشكل دائري حتى أخرج القفل الذي كان متواريا خلف الباب، ثم أخرج مفتاحا وفتح القفل.

تعجبت ماذا يفعل هذا و لماذا يقفل باب الشقة بسلسلة كهاته!!

لم أفهم أي شيء، فقط التزمت السُّكوت وتبعته، فأغلق الباب وسحب القفل إلى الداخل ثم أقفله. دلفت خلفه، كانت تنبعث من المنزل رائحة غير جيدة، كما أن ضوء المصابيح كان خافتًا جدًّا، جلست على أريكة مليئة بالغبار وبقيت صامتا، قال لي صديق الملتحي، هنا ستنام الليلة، ثم أشار لي على سرير في إحدى الغرف. سألته هل سأنام وحدي، فقال لي إنه سيأتي ثلاثة أشخاص هم أيضا ينامون هنا. ثم استأنف قائلا: المهم سأخرج حالا، يمكنك أن ترتاح الآن، أخبرني إذا كنت تحتاج شيئا من الخارج.

قلت له لا أحتاج إلى أي شيء وشكرته.

غادر الولد بعد أن أقفل عليّ الباب، ودفع بالقفل إلى الداخل كما كان في الأول.

أول شيء فكرت فيه هو المرحاض فالبواسير تؤلمني؛ لكن ما إن أشعلت ضوء المرحاض حتى انبعثت رائحة البول الشديدة، قلت مع نفسي معاتبا، أين يعيش هؤلاء، ألا يوجد ماء هنا؟؟ ثم فتحت الصنبور لأكتشف فعلا أنه لا يوجد ماء في المرحاض؟؟

كنت أريد فقط الخروج في تلك اللحظة، أن أنام في حديقة على قطع الكارتون أفضل بالنسبة لي من النوم في هذه المزبلة؛ بيد أنني لم أكن قادرا على الخروج.

أسئلة كثيرة أطرقت على خلدي في تلك الليلة، شعرت بالبلادة والغباء، حيث أقدمت على هذه المخاطرة من أجل حياة كهاته!!

انتظرت حتى حدود العاشرة مساء، ليدخل الأشخاص الذين ألفوا المبيت هنا. أحضروا معهم قليلا من الدجاج والطماطم والبصل والخبز والماء والخمر وشاركوا معي طعامهم.

كانوا طيبين للغاية، تقاسموا معي معاناتهم وكيف يعيشون بكل أسىً وبؤس. وليد شاب يملك أوراق إقامة خمس سنوات، ومهدي ومحمد مهاجران غير شرعيان؛ سألتهم بخصوص المنزل فقالوا لي إنه "منزل للبنك" فلم أستوعب الكلمة وطلبت منهم التوضيح أكثر.

تطوّع أحدهم شارحا فقال: إن هذه البيوت كان قد حجز عليها البنك بعد أن عجز أصحابها عن تسديد ائتمانها إبان الأزمة. ثم أضاف: نحن نقوم بفتح هذه البيوت ونسكن فيها، وبعد أن تكتشفنا الشرطة، نغادرها ونفتح واحدة أخرى.. الكل يعيش بهذه الطريقة، بما فيهم الإسبانيون أنفسهم.

علق وليد: هذه هي إسبانيا ما تزال آثار الأزمة واضحة على اقتصادها؛ لكنها أفضل حالا من المغرب!!
سألتهم: هل يوجد عمل هنا؟؟
أجاب مهدي: هنا توجد فقط الفلاحة والمخدرات؟؟

قلت: هل تعمل الآن في الفلاحة؟؟

قال: بعد أسبوع سأسافر إلى مدينة تسمى "خين" معروفة بالزيتون، هناك سأبحث عن عمل!!
سألته: في هذه المدينة ألا يوجد عمل آخر ؟؟
أجاب وليد : هذه ليست مدينة، هذه مجرد قرية !؟
قلت: قرية !! هل تستهزئ بي، لقد جبت الشوارع هنا، إنها مدينة جميلة؟!.
قال مهدي: القرى هنا مثل المدن، الفرق أن المدينة تكون كبيرة والقرية صغيرة.
سألني وليد: هل ستبقى هنا أم ماذا ستفعل ؟؟
قلت له: لا، لا يمكنني البقاء هنا، سأذهب إلى الشمال ؟؟
سأل: أين ؟؟
قلت: إلى ألمانيا، أحتاج فقط إلى المال.
قال لي: عليك بالقطار، سيقودك أينما تريد بدون مال إذا عرفت كيف تتجنب المراقب!!
سألته: كيف؟
قال: الأمر بسيط جدا، ستجلس بشكل عادي، إذا رأيت المراقب أدخل إلى المرحاض، وحين تشعر بأنه قد غادر، عد إلى مكانك؛ أو من الأحسن أن تبقى في المرحاض حتى تصل إلى وجهتك التي تريد.
علق محمد قائلا: لا، من الأحسن أن يدفع ثمن التذكرة، المراقبون فطنوا لهذه الحيلة !!
رد عليه وليد: لكنه لا يملك المال .
قال له محمد: غدا سيذهب معي إلى موقف السيارات كي يجني قليلا من المال !!
سألته: كيف تقوم الأشياء ؟؟
أجاب: غدا سأقول لك كل شيء ؟!
رد عليه مهدي: لكن يجب أن يكون حذرا مع الشرطة.
سألت وأنا أسعل: هل هذا عمل ممنوع أو ماذا؟ لماذا يجب أن أكون حذرا من الشرطة؟؟
أجاب محمد وهو يعب من قنينة بيرة: ليس ممنوعا، لكن بعض القاصرين لوثوا كل شيء، يكسرون زجاج السيارات ويسرقون كل ما يمكن بيعه، وبالتالي، كل من يقف في موقف السيارات، يعتبر مشتبها فيه حتى يبرئ نفسه.

في تلك الليلة استفدت كثيرا من الأشياء واصطدمت بواقع مرّ يعيشه المهاجرون أصحاب الإقامة، والمهاجرون السريون على حد سواء.

نمت في تلك الليلة وأنا أسعل طول الليل، بسبب رائحة الرطوبة المقرفة، ورائحة الحشيش القوية.

استفقنا على الساعة التاسعة صباحًا، خرجت مع محمد واتجهنا نحو مكان يتناول فيه الناس الفطور مجانًا، ترجّلنا مسافة كيلومتر واحد تقريبا حتى وصلنا إليه، وجدنا طابورا من النّاس ينتظرون دورهم غالبهم مهاجرون مغاربة وأفارقة جنوب الصحراء!!

بقينا ننتظر حتى جاء دورنا، طلب مني رجل يقف أمام الباب رقمي الخاص، فقال له محمد إنه جديد هنا. فسمح لي بالدخول وطلب مني أن أتسجل عند المساعدة الاجتماعية فور انتهائي من الفطور.

اخترت قهوة بالحليب وبضع حلويات. تناولنا فطورنا وخرجنا دون أن أتسجل عند المساعدة الاجتماعية.

يمّمنا وجهتنا إلى موقف سيارات كان يبعد عن المركز الاجتماعي بعشرين دقيقة تقريبا، قال لي محمد هنا ستعمل اليوم، ثم أضاف مفسرًا:

- ستقف هنا في هذه الزاوية، إذا رأيت سيارة تبحث عن مصف للتوقف، أَشِر لها إلى مكان شاغر، وساعدها حتى تستوي على المصف، و سيمنحك صاحب السيارة ما تيسر. كن لبقا، استعمل عبارتي "hola buenos días " و"Gracias " كثيرا.. واحذر من الشرطة، إذا رأيتهم توارَ عنهم أو ابتعد عن موقف السيارات وبعدها ارجع من جديد.

أضاف: أنا الآن سأذهب إلى موقف سيارات آخر، المهم موعدنا مساء، نلتقي في المسجد مع صلاة العشاء.

قال ذلك وذهب!.

ما إن ذهب محمد حتى رأيت سيارة تبحث عن مصف للتوقف، أشرت لها إلى مكان غير محجوز، وساعدتها حتى استقرت في المكان المخصص، خرجت سيدة من السيارة وأعطتني يورو واحدا و بضع سنتيمات حمراء. شكرتها مع ابتسامة مصطنعة.

هكذا بقيت لمدة ساعتين تقريبا، حصلت فيها على عشرة يوروهات، وكان كل شيء يسير على ما يرام حتى تقدم نحوي شخص من نجيريا، تحدثت معه بالانجليزية، فقال لي بصوت جهوري: هذا المكان هو لي، أنا من أعمل هنا.

قلت له بصوت حازم: ماذا تقصد بأن المكان هو لك؟!
قال لي: أنا دائما أعمل هنا، اِبحث عن موقف سيارات آخر!!
قلت له بلكنة هادئة: أنا سأعمل هنا اليوم، أريد أن أحصل على ثلاثين يورو فقط وسأغادر هذه المدينة.
قال لي: سنعمل معًا اليوم، و سنقتسم الربح في الأخير.
وافقت، فانزاح إلى زاوية وأخذت زاوية مغايرة.
بقينا في ذلك الموقف حتى حدود الثانية زوالا، شعرت بالجوع، فاستأذنته في الذهاب إلى محل لشراء ما يسد الجوع.
قال لي: هات ما عندك من مال وتعال لنقتسمه.
قلت له : لكنني سأعود حالا.
قال : نقتسم المال أولا .

أخرجت جميع النقود التي حصلت عليها بعد أن اتفقت وإياه على اقتسام الأرباح، وعددتها أمامه أحدَ عشرَ يورو . ثم سألته كم حصلت أنت؟؟ قال لي تسعة يوروهات فقط، يجب أن تعطيني يورو واحدا!.

كنت أعرف أنه يكذب، وأنه حصل على أكثر من ذلك، وتجنبًا لأي شجار أعطيته يورو!!

ذهبت إلى محل كبير كان في الجانب الآخر لموقف السيارات، اشتريت عصير فواكه بيورو واحد وحلويات بيورو آخر، ثم خرجت من المحل.

رجعت إلى موقف السيارات، ودعوت النيجري إلى مشاركتي الأكل، بيد أنه رفض، كما أنه رفض أيضا اقتسام الأرباح مجددا. كان يبدو منفعلا ويتحدث مع نفسه بلهجته الأم.

أخذت نفس الزاوية التي كنت فيها، في حين هو غير مكانه، فأضحى يتراوح بين زاويتين، يركن سيارة هنا، وسيارة هناك، إضافة إلى أنه كان يطلب دائما المزيد من أصحاب السيارات، يُلحُّ عليهم حتى يمنحوه بعض السنتيمات الإضافية.

كنت أشاهد ذلك وأستغرب!!

مع الرابعة مساء، وأنا أراقب السيارات التي تدخل إلى الموقف، تقدم نحوي رجل مغربي في الخمسينيات، كانت رائحة الخمر تسبقه بأمتار، قال لي بلسان متثاقل: أعطني يورو، منذ الصباح لم آكل شيئا.

قلت له إنه أول يوم لي في إسبانيا، أريد أن أجمع فقط ما أستطيع به السفر إلى ألمانيا.
قال لي لا مشكل، يسّر الله أمرك ثم انصرف .

رق قلبي لحاله فأعطيته يورو الذي كنت أحوج منه إليه !!

ما إن غادر الرجل المغربي بدقائق، حتى لمحت النيجيري يفر في اتجاهي وهو يقول لي، أهرب الشرطة ..الشرطة. لم أعرف ماذا سأفعل حينها، لم أستطيع الجري بسبب البواسير التي تؤلمني، فأثرت التواري بين السيارات.

جلست القرفصاء قرب إحدى الإطارات وأنا أدعو الله أن يبعد عني أعين الشرطة. كنت متواريًا مثل سارق لدرجة لو لمحني أي مواطن عادي في تلك الوضعية سينادي على الشرطة بكل تأكيد، لهذا كنت أخشى أن يمر بقربي أحدٌ أكثر من خشيتي أن تتلقفني أعين الشرطة.

توقفت سيارة الشرطة خمس دقائق تقريبا، ترجل منها شرطي، وبدأ يمر جيئة وذهابا حتى لم يبقَ بيني وبينه سوى سيارة واحدة، وبعدها صعد إلى سيارته وغادر مركن السيارات.

تنفست الصعداء، وشكرت الله أن أنقذني من الشرطة في آخر لحظة، وبعدها قررت عدم الرجوع إلى موقف السيارات ذاك، قلت مع نفسي بما أنهم ترجلوا بتلك الطريقة، فأكيد أنهم سيعودون.

كان التوقيت حينها زوالا، لم أعرف ماذا سأفعل ولا أين سأذهب، وبما أن الحدائق في هذه القرية كانت كثيرة جدا، وأينما تولي وجهك تجد حديقة جميلة، فقد جلست في حديقة قرب موقف السيارات، وبدأت في مراجعة الأحداث، تذكرت صديقي أيوب في مركز الشرطة، لا شك أنه غاضب مني، إذ لم أخبره أني سأهرب؛ لكن؛ أنا نفسي لم أكن أتوقع أنني سأنجح في الهرب في تلك الظروف، لا شك أنهم سيشددون عليهم الحراسة بسبب هروبي، لقد خلقت لهم المشاكل حتما، سأكون أنا هو السبب في ترحيل كل من كان يخطط للهرب بتلك الطريقة الغبية.

بقيت أتساءل وأتأمل النّاس وهم يتنزهون مع كلابهم حتى شعرت بالجوع، ثم ترجلت نحو حي المغاربة إلى أن وصلت إلى الدُّكان الذي يبعد عن المسجد بأمتار معدودة.

ما إن دلفت إلى الدّكان حتى تعرف عليّ صاحب المحل، سألني وابتسامة لا تفارق شفتيه: كيف هي أمورك؟ هل كل شيء يسير على ما يرام؟

قلت له: الحمد لله، البارحة نمت مع بعض الأصدقاء في إحدى دور البنك.
- وأين ستنام هذه الليلة ؟؟
- في نفس المكان ؟؟
- الحمد لله، شيئا فشيئا سيأتي الفرج إن شاء الله.
قلت له: الحمد لله! و طلبت منه عصيرا وخبزا وبعض الجبن، ثم انصرفت بعد أن دفعت له الثمن.
جلست في كرسي بالقرب من الدكان وبدأت أقضم من الخبز المحشو بالجبن وأعب تباعا من العصير؛ وبعد أن انتهيت من الأكل شعرت بألم كبير بسبب البواسير، تحمّلت الألم موهمًا نفسي أنه سيزول مثل السابق، بيد أن الألم والحرقة تضاعفا، الشيء الذي حتم عليّ البحث عن حلٍّ عاجل.
أول ما استقر في خلدي هو الثوم، فهذا الأخير يعتبر في الطب الشعبي مهدئا لألم البواسير.

اشتريت أربع حبات من الثوم، ويمّمت وجهي إلى المسجد، دخلت مباشرة إلى المرحاض وحضّرت مرهما بحبتي ثوم، ثم وضعته على الأوردة المنتفخة حتى اشتدّ الألم واحتدّت الحرقة؛ ومع ذلك قاومت حتى بدأت تخفّ شدة الألم وبدأت أشعر معها بالراحة شيئا فشيئا، وبعدها توضأت وجلست في المسجد إلى أن حان موعد صلاة المغرب.

بعد الصلاة رأيت رئيس المسجد فتوجهت نحوه وقلت له بطريقة مهذبة ولبقة إنني أحتاج إلى المال من أجل السفر إلى الشمال، هل يمكنك أن تجمع لي بعض المال من المصلين، فقال لي وهو يخطو نحو باب المسجد مسرعًا: بعد صلاة العشاء أطلب من المصلين ذلك، لا يمكنني أنا فعل هذا.

هكذا قال ثم أسرع الخطى متجاهلا إيّايّ كليّا. لعنته داخلي وخرجت من المسجد وأنا أقول في نفسي، أي جشع يملك هؤلاء، وما هو دور هذه المساجد إذا لم تقدم المساعدات للمحتاجين، وأين تذهب المليارات من اليوروهات التي تُنفق سنويًا على المساجد في أوروبا؟؟ ولماذا لا تقدم المساجدُ المساعدةَ نفسَها التي تقدمها الكنيسة ؟ ألا يدّعي المسلمون أن دينهم هو دين الإنسانية؟؟ إذن أين تتجلى هذه الإنسانية؟؟

وقفت قرب المسجد أنتظر بفارغ الصبر أن يأتي محمد أو صديقه الملتحي لأذهب إلى المنزل كي أرتاح قليلا، هكذا أصبحت بالنسبة لي تلك الشقة المتسخة منزلا للراحة!!

انتظرت زهاء ساعة بعد صلاة العشاء أمام المسجد، لكنه لم يأت، كنتُ أشعر بالبرد وبدأ أنفي في السيلان، ففضلت الذهاب مباشرة إلى الشقة، وبما أنني لا أعرف الدروب جيدا، فقد أضعت الطريق وبدأت أسير بدون هَوادة حتى وصلت إلى عمارة مظلمة خُيّلَ إليّ أنها هي ذاتها التي نمت في إحدى شققها الليلة الفائتة. صعدت الطابق الأول فالثاني فالثالث ثم بدأت أتحسس بيدي كل باب على حدة علّني أهتدي إلى السلسلة الكبيرة التي كان يُقفل بها الباب، بيد أنني لم أجد شيئا، فصعدت الى الطابق الرابع لكن دون فائدة. بدأ يراودني الشك أن هذه ليست هي العمارة التي نمت فيها البارحة فقررت النزول وأنا أردد بصوت منخفض في كل طبقة "محمد.. محمد.." دون أن يجب أحد، حتى وصلت إلى الطبقة السفلية ليعترضني أحد الأشخاص موجها ضوءا على وجهي وهو يتحدث لغة إسبانية

خشنة دون توقف. تسمرت مكاني وأصبت بهلع كبير، وبدأت أقول له بلغة انجليزية ركيكة: peace and love لكنه بدا أنه ليس من المؤمنين لا بالسلام ولا بالحب، بدأ يقترب مني وبدأت أتراجع وأنا أعيد العبارة السالفة مضيفا :

-i don't speak spanish

حاولت أن أهرب لكنه كان يقف معترضا طريقي نحو الباب ويشير بكلتا يديه. لم أكن أعرف ماذا كان يحمل بالضبط في يديه؛ لهذا فضلت الجلوس على الدرج ورفع يداي إلى الأعلى كإشارة على الاستسلام وعدم إبداء أي مقاومة، قلت في نفسي هذا هو الحل السليم، رجل مثل هذا قد يكون مريضًا ويجب التعامل معه على هذا الأساس. كان رجلا أسمر البشرة فارع الطول مفتول العضلات، جسده مليئ بالوشوم، اقترب مني أكثر فبدا أنه يحمل سكينا في حجم الكف، ثم بدأ يتحدث معي بالإسبانية بشكل سريع وأنا أقول له عبارات متفرقة أحفظها:

-I am not from Spain
- patera.. marruecos.. comer
- pobre..trabajo..Por favor

ثم بدأت أشير له على الثياب التي أرتدي، و بمجرد أن رآها وتأكد أنني لتو خرجت من مقر الشرطة حتى تغيرت لهجته وغرس ذاك السكين في جيبه، ثم بدأ يقول لي بلغة إسبانية وإشارات بيديه فهمت منهما أنه يطلب مني أن أتبعه وأدخل معه إلى شقته بالطابق السفلي.

ما إن وضعت قدمي على عتبة الباب حتى استقبلتني رائحة الماريخوانا القوية، المنزل بدا للوهلة الأولى فارغا إلا من كراسي ومائدة تتوسطه، دلفنا إلى الداخل وفي إحدى الزوايا نزلنا على سلم خشبي به بضعة أدرج، لنجد مرآبا كبيرا يشغل مساحة مئتي متر تقريبا أو أكثر، به عدة مصابيح خافتة ومكيفات هواء وعدة أصائص مزروعة بنبتة الماريخوانا بطريقة منظمة.

بدأنا نتمشى بين الأصائص وهو يتحدث معي كما لو أنني أفهم الإسبانية، واصل حديثه الذي فهمت منه كلمة واحدة فقط el trabajo وفهمت معها لماذا اعترض طريقي بتلك الطريقة الخشنة.

جلس على كرسيٍّ صغير محاذاة مجموعة من الأصائص، ثم قطف بعض الماريخوانا وبدأ يلفها خالصة في ورقة مذهبة، ثم أخرج دَورقًا صغيرًا من جيبه وبدأ يضع قطرات من زيت الماريخوانا على السيجارة، وبعدها أشعل السيجارة ومجّ منها بعنفوان ثم منحها لي، إلاّ أنني اعتذرت منه وأخبرته أنني لا أدخن وشكرته كثيرا.

أرجع السيجارة إلى فمه وأشار لي بإبهامه كعلامة استحسان على عدم التدخين. وما هي إلاّ دقائق حتى نزل شخص آخر قصير القامة، ضخم الجثة، أبيض البشر، حليق الوجه، يضع سلسلة من الذهب على عنقه وأخرى في يده اليسرى، جلس بجانب صديقه وانخرطا في حديث دام نصف ساعة تقريبا. كان قصير القامة هذا، بداية الحديث يثرثر كثيرًا، لكنه ما إن مجّ من سيجارة الماريخوانا حتى أصبح هادئا وتثاقل عليه لسانه. فكّرت، لو أنني شاركتهم تلك السيجارة الخالصة ماذا كان سيحصل لي، الرب وحده كان يعلم!! أما أنا فلم أكن أعلم حتى سبب وجودي هنا وكيف وصلت إلى هذا المكان ولماذا لا أزال هنا؟؟

قمت من الكرسي وحاولت إخبارهما بأنّني سأذهب، بيد أن لغتي لم تسعفني، ولم يفهما ما أقصد.

كنت أقول لهما أريد أن أذهب وكانوا هم يشيرون لي إلى سرير هناك قرب الأصائص إذا ما كنت أريد النوم. قلت لهم بلغة ركيكة :

- dormir..... casa de amigo

لكنهم مرة أخرى يشيرون لي إلى نفس السرير بغباء. لست أدري هل هم أغبياء حقا أم أنها سيجارة الماريخوانا من جعلتهم كذلك!؟

لم أجد سبيلا آخر غير مطاوعتهم، خصوصا وأن الجوّ بارد في الخارج وليس لي مكان أذهب إليه في هذا الوقت؛ فعلى الأقل هنا يمكن أن أريح جسدي المتعب قليلا.

استلقيت على السرير خائر القوة، منهك الجسد، وما إن وضعت رأسي على الوسادة، حتى بدأت تراودني أفكار سلبية، من قبيل أن هؤلاء مجرمون يتاجرون في المخدرات وبإمكانهم أن يقتلوني ويبيعون أعضائي. لكن تعب الجسد ورائحة

الماريخوانا القوية ورائحة الجوارب ولا مبالاتي التي وصلت حدّها، كانوا أقوى من كل هذه الأضغاث وأقوى من البرد الذي أشعر به وأنا على السرير، فنمت دون أن أفكر في أي شيء.

نمت حتى حدود الساعة السابعة صباحا، لأستيقظ على صوت ذاك الشاب الأسمر وهو ينده علي، أحضر معه علبة من الحلويات وعصير برتقال في كأس صغير، ثم ناولني إياهم، شكرته وحاولت التواصل معه بشتى الطرق بينما كنت أتناول الفطور. فهمت من كلامه أنه غجري إسباني يعمل في زراعة الماريخوانا والاعتناء بها إلى حين القطف، وهناك آخرون يختصون في ترويجها من بينهم رجل مغربي، كما فهمت أن هذا المخبأ ليس حصرًا على الماريخوانا بل أيضا تُخبّأ فيه مخدرات أخرى لم أفطن إلى طبيعتها بشكل محدد. كان هذا الغجري طيبا في حديثه معي، لدرجة خُيِّل إليَّ أنه ليس هو الشخص نفسه الذي تعرض إليّ بسكين ليلة البارحة.

بعد أن تناولت فطوري رافقته في جولة قصيرة حول الأصائص، وبينما كان هو يشذب و يقطف الأوراق التي تبدو غير صالحة ويرمي بها في كيس صغير، كنت أنا أكنس التراب المتساقط على الأرض. استغرق الوقت ساعةً أو أكثر، مرت كلها حديث لم أفهم منه سوى النزر اليسير جدا، كنت أسمع إليه واستغرب لماذا يتحدث معي بالإسبانية وهو يعلم أنني لا أفهم شيئا فيها، تراه كان يشعر بالملل أم تراه كان في حاجة إلى شخص ما ينصت إليه دون أن يتكلم؟؟ هذا ما لم أعرفه**!!**.

بعد انتهائه من تشذيب الماريخوانا، قطف بعضًا منها ولفها في ورقة تبغ خالصة تماما مثلما فعل بالأمس، غير أنه لم يضف إليها زيت الماريخوانا ثم وضعها في جيبه وطلب مني أن أرافقه نحو الأعلى، صعدنا إلى المنزل عبر درج من الخشب، لتشدني الغرابة إذ كيف تحول المنزل من منزل فارغ إلاّ من بضع كراسي ومائدة كبيرة إلى منزل أنيق به فراش وثير وجميل، لم أجسر على سؤاله وبدأت أوهم نفسي أن ما شاهدت البارحة مجرد تخيلات ناتجة عن العياء وألم الرأس والبواسير اللعينة.

دخل الغجري مباشرة إلى المطبخ وأعد قهوة، ثم أفرغها في كأسين وناولني واحدا، ثم جلسنا في صالة المنزل بأريحية تامة، بعدها أخرج سيجارة الماريخوانا التي أعدها سلفا وأشعلها، وبينما هو يدخن و يرشف القهوة أخرج هاتفه وبدأ

يتصفح معرض الصور، ثم أظهر لي صورة لشاب في مقتبل العمر وقال لي إنه مغربي يعمل معه وإنه سيأتي إلى هنا حالا. هذا ما استطعت أن أفهمه منه وقتها، وهذا ما تأكد لي بعد نصف ساعة حين سُمع صوت مفاتيح الباب ورأيته يتقدم نحونا وهو يتحدث بالإسبانية مع أحدهم على الهاتف.

أنهى الخط على الهاتف وسلم عليّ باللغة العربية وسألني مباشرة:
- أنت ريفي.. أليس كذلك ؟؟
- لا، أنا من مدينة آسفي !!
- عائلة أمي من مدينة آسفي أيضًا.. أناس آسفي أهل كرم.
- نعم صحيح.. ماذا عن أبيك، من أي مدينة.
- أبي ريفي من مدينة الناظور.
- ما اسمك ؟؟
- عبدالله وأنت ؟؟
- صدفة كبيرة !! أنا أيضا اسمي عبدالله لكن الجميع ينادون علي باسم عبدو. كم لديك في إسبانيا عبدالله ؟
- ثلاثة أيام فقط.
- من أي مدينة خرج بكم القارب ؟
- من مدينة القنيطرة !!
- ماذا تنوي أن تفعل الآن، هل تريد أن تعمل؟
- نعم، أحتاج إلى العمل كي أسافر إلى الشمال، لا أريد البقاء في اسبانيا.
- المهم، نحن إخوة ونتقاسم الدم بيننا، إذا كنت تريد أن تبقى هنا وتعمل معنا، فمرحبا بك.
- شكرا لك، لكن أريد أن أعمل فقط من أجل تكاليف السفر.
- إذا كنت تريد مغادرة إسبانيا سأعطيك ما يكفيك، لن تحتاج إلى العمل.
- هذه بشارة منك .. شكرا لك .
- نحن إخوة، ستذهب معي الآن إلى المنزل من أجل أن تستحم وتغير ثيابك.

ما إن سمعت عبارة "تستحم" حتى خفق قلبي، وغمرتني سعادة خاصة، وبدأت أتخيل الماء الساخن ينساب على جسدي ويطرد كل البرودة التي تسكنني؛ ففي تلك اللحظة كنت أحتاج إلى ماء ساخن أكثر من حاجتي إلى المال أو الطعام!.

جلسنا نحو أربعين دقيقة نتجاذب أطراف الحديث بمعية الغجري، فهمت من خلاله بعض ما يجري هنا، واكتشفت بأنني البارحة لم أكن أتوهم، وأن المنزل الذي نزلت منه ليس هو المنزل الذي صعدت إليه للتو، وأنّ المرآب في الأسفل يجمع بين منزلين متفرقين يفصل بينهما زقاق؛ أي أن المرآب تم انشاؤه خصيصا لزراعة الماريخوانا والمتاجرة بمخدرات أخرى.

لم يكن يملك عبدو وقتا كثيرا يسمح له بالبقاء في المنزل مدة أطول، لذا استأذن الغجري وأخبره أنه سيذهب الآن وسيعود بعد يومين، وما إن هممنا بالذهاب حتى قمت أسلم على الغجري وأشكره على حسن جميله الذي بدأ بإشهار سكين في وجهي.

خرجنا من المنزل وركبنا في سيارة أودي، وأثناء الطريق كان عقلي يفكر فقط في الماء الساخن وغاسول الجسم المنعش ورائحة الشامبو الجميلة وفراش النوم الدافئ، ليقطع تفكيري سؤال من عبدو:

- ماذا حصل أمس تحديدا ؟؟

حكيت له القصة بأكملها وأخبرته أن هذا الغجري أشهر سكينا في وجهي.
أردف وهو يضحك بصوت منخفض: أنت محظوظ إذ لم يشهر في وجهك مسدسا، سبق أن فعلها من قبل. ثم أضاف على سبيل المزاح: إنه رجل مجنون قليلا.

واصلنا الحديث والأسئلة الشخصية حتى وصلنا إلى المنزل، لم تكن المسافة بين منزل عبدو ومنزل الغجري تتجاوز الخمسين كيلومترا؛ إذ في غضون أقل من أربعين دقيقة كنا أمام منزل عبدو في مدينة اسمها marbella.

دلفنا إلى المنزل، لتستقبلنا طفلته الصغيرة والتي تبلغ من العمر خمس سنوات، ضمّها والدها بين ذراعيه وبدأ يتحدث معها بالعربية وهي تجيب بالإسبانية. أما أنا فكنت أنتظر بفارغ الصبر متى يمنحني منشفة ويقول لي اذهب واستحم.

دخلنا إلى غرفة صغيرة، وهناك قال لي ستنام هنا هذه الأيام، ثم خرج وعاد متأبطا بعض الثياب النظيفة وأحضر معهم منشفة في لون الوردي، ثم نطق أخيرًا بالكلمة السّحرية "خذ دوشا".

بعجالة حملتُ الثياب والمنشفة وأسرعت إلى الدوش الذي استقبلتني رائحته الطيبة أمام الباب كما لو أنني أدخل إلى الجنة، ومن حسن حظي أن وجدت الدوش يحتوي على حوض استحمام كبير، ملأته بالماء الساخن ومزجته بالصابون والشامبو حتى لم تعد ترُى سوى رغوة الصابون ثم انغمست فيها. في الأول لم يتقبل جسمي السخونة تلك، فحين كنت أغمس جسمي في الماء أشعر بالقشعريرة وأشهق كما لو أنني أغمس جسمي في ماء بارد؛ ربما كان ذلك ناتجا عن أن جسمي اعتاد البرودة؛ المهم أنه شيئا فشيئا طفق جسمي يعتاد على الماء الساخن واسترخيت كليًّا حتى بدأ الماء يبرد لدرجة شعرت معها أن جسدي يقذف البرودة ويمتص سخونة الماء. بعدها استخدمت رشاشة الدوش وبدأت أصوّب الماء الساخن بشكل مكثف إلى الأماكن التي تؤلمني: أسفل قدمي، ظهري، ركبتي، مكان البواسير .. ثم وضعت مرهما ونشفت جسمي، وما إن خرجت من الدوش حتى وجدت زوجة عبدو الإسبانية قد حضرت طعاما لذيذا.

قلت مع نفسي: يا الله إنه النعيم !!

وأنا أتناول الغذاء منتشيا براحة كبيرة تذكرت كل من ينام في الشارع وتحت القناطر أنّى لهم القدرة على التحمّل في هذا البرد القارس ؟؟
ثم قلت في نفسي: يا الله إنه الجحيم!!

قضيت في بيت عبدو ثلاثة أيام من الراحة، أخذت فيها أدوية للبواسير واستعدت بعضًا من طاقتي، وتحدثت فيها مع عائلتي، كما أنني حصلت فيها على هاتف وبعض المال الذي أعطانيه عبدو، وفي صباح اليوم الرابع على الساعة الثامنة صباحا أخذتُ الحافلة نحو العاصمة مدريد، ووصلت على الساعة الثالثة وبضع دقائق زوالا.

كانت المحطة كبيرة جدا و مطوقة بالشرطة وكانت هناك سيارة إسعاف بالإضافة إلى سيارة إطفاء، لم أحاول معرفة ما يجري، فقد كان كل تفكيري منصبا كيف أخرج من المحطة دون أن تتلقفني أعين الشرطة التي تتواجد أكثر من المسافرين. طرقتُ في التفكير وخلصت أن أفضل طريقة لكيلا يوقفني أي شرطي هو الذهاب عنده واستفساره!!

قصدت شرطيا شابا بابتسامة كاذبة، وسألته بلكنة انجليزية بريطانية عن مكان الخروج، شرح لي بالتفصيل بلغة انجليزية ركيكة، وختم قائلا: مرحبا بك في مدريد. وبهذا خرجت من المحطة دون مشاكل.

دخلت إلى مقهى يبعد عن المحطة بأمتار قليلة، وقمت بشحن هاتفي وفتحته على الانترنت لكي أبحث عن الحافلة التي ستقلني إلى مدينة سان سيبستيان. وجدت أن هناك حافلة واحدة ستنطلق بعد منتصف الليل، وهناك قطار سينطلق على الساعة الرابعة ونصف. لم أعرف حينها ماذا سأختار، هل أنتظر حتى منتصف الليل أم أذهب في القطار؟! وبعد تفكير لِلَحظات وجدت أن فكرة القطار غير سديدة؛ لأن التوقيت لم يكن يسمح بذلك، وأن أقل من أربعين دقيقة لا تكفي أن أبحث عن مكان محطة القطار التي لا أعرف أين تتواجد ولا عن كم تبعد من هنا، لهذا قررت الانتظار حتى منتصف الليل وأخذ الحافلة واستغلال هذا الوقت المتبقي في التجول قليلا بالمدينة رغم أن الجو كان مضطربا و حادا.

شعرت بالجوع فتوجهت إلى محل تركي يبيع المأكولات السريعة، وقبل أن أدخل نظرت إلى لائحة الأثمنة المعلقة على الزجاج وحفظت اسم الوجبة التي كان ثمنها منخفضًا ثم دخلت إلى المحل واشتريتها.

بعد مرور أقل من نصف ساعة على تواجدي في المحل التركي بدأت السماء تمطر لتخنقني كآبة قوية ووحدة قاتلة. نعم؛ شعرت بالوحدة في المدينة التي تضم أكبر نسمة بشرية في إسبانيا؛ هذه المدينة التي تضم جميع أجناس العالم.

وأنا أراقب قطرات المطر تتساقط على الزجاج، تذكرت حين كنا في الشاطئ ننتظر القارب والشتاء تمطر، تذكرت المرأة مع ابنتها والأصحاب في مخفر الشرطة والفتاة التي توفيت، ما زلت أسمع صرختها الأخيرة في أذني، لماذا تراها أقدمت على الهجرة بهذه الطريقة القاتلة؟؟ بل؛ لماذا ترانا أقدمنا جميعنا على الهجرة بهذه الطريقة القاتلة؟؟ لماذا انتحرنا طواعية بهذا الشكل؟؟ هل فقدنا الأمل في بلداننا لهذه الدرجة؟؟ أسئلة كثيرة تتساقط على عقلي مثلما يتساقط المطر على هذا الزجاج فيغدو عديم الرؤية. لقد بات المطر بالنسبة لي فأل شؤم؛ كل الأشعار التي سبق أن قرأتها عن المطر كانت خيالية ولا معنى لها، و كل الشعراء الذين كانوا يتغزلون بالمطر، ويتذكرون حبيباتهم حين تمطر السماء، كانوا يكتبون قصائدهم بالقرب من مدفأة، يجلسون على أرائك ناعمة، ويستمعون إلى موسيقى

تنسجم وصوت المطر، ثم يشربون الشامبانيا المعتّقة و ينخرطون في وصف شاعرية المطر وهم ينظرون إليه من خلال نافذة تطل على منظر طبيعي ولسان حالهم يقول "أحب المطر شريطة أن لا يسقط علي" هؤلاء الشعراء لم يعيشوا في المغرب ليروا طفلا يستيقظ باكرا متوجها إلى الفصل بدون فطور، وحين يصل إلى المدرسة مبتلا يجدها أكثر منه فيعود فرحا لأنه لم يدرس.

هؤلاء الشعراء لم يشاهدوا حافلة مليئة بالناس تغرق رويدا رويدا بسبب الأمطار التي لم تجد بنية مهيكلة وطرقًا معبّدة.

هؤلاء الشعراء لم يشاهدوا عائلات تسكن دور الصفيح و بيوتا مهترئة يتساقط عليهم المطر من كل صوب ولا ينامون في الليل.
هؤلاء الشعراء لم يشاهدوا سكان الجبال الذين يفقدون كل سنة جزءا من أغنامهم وذويهم بسبب المطر.
هؤلاء الشعراء لم يشاهدوا سيارة إسعاف موغلة وسط الماء لا حيلة لها.
هؤلاء الشعراء لم يشاهدوا أحياء بكاملها تغرق بسبب عدم وجود مجاري الصرف الصحي.
هؤلاء الشعراء لم يعيشوا هذه الأحداث وإلاّ كانوا قد ذموا المطر عوض مدحه.
هكذا حكياتنا نحن الفقراء مع المطر، معاناة في معاناة**!!**

***

بدأ الظلام يحلّ والمطر يشتدّ وأنا أترقّب بفارغ الصبر متى يحل منتصف الليل لكي آخذ الحافلة إلى سان سيبستيان. مللت من الجلوس في ذلك المحل، فانتقلت إلى بار كان في الجوار، موسيقاه هادئة ترتاح لها النفس وتخفف حدة الكآبة التي ألمّت بي، أما هندسته فكانت تقليدية ضاربة في القدم، أما زواره فغالبهم من المسنين يشربون البيرة ويتسامرون في جو هادئ. مكثت هناك إلى حدود الساعة الحادية عشر، كانت السماء حينها قد أقلعت، توجهت مباشرة إلى المحطة لأصطدم أن شباك بيع التذاكر مقفول، وليس هناك سوى بضعة رجال من الشرطة. شعرت بغباء كبير إذ لم اشترِ التذكرة في وضح النهار، كنت أظن أن شبابيك بيع التذاكر تعمل ليل نهار كما في المغرب.

تقدم نحوي شاب مغربي كان أمام المحطة وسألني إذا كان هنالك من مشكل، أجبته بأنني أريد شراء تذكرة إلى مدينة سان سيبستيان فقال لي: هناك حل وحيد وهو أن تشتري التذكرة عبر الانترنت؛ ثم أضاف: إن شئت أعطني المال وأنا سأشتري لك التذكرة عبر الانترنت.

نظرت إلى عينيه وبدا لي من خلال طريقة حديثة ولباسه أنه محتال ويريد فقط سرقة نقودي، خصوصا بعدما أكثر عليّ الأسئلة الشخصية. ولأتخلص منه قلت له إنّني لستُ مستعجلا، وإنني سأذهب حالا إلى المنزل وأعود في الصباح، ثم شكرته وغادرت المحطة.

سألت نفسي أين هو المنزل الذي سأعود إليه؟! حتما كنت أقصد الشارع؛ لأن الشارع هو منزل غالبية المهاجرين السريين!. هكذا يتركون منازلهم في أوطانهم لينامو في الشوارع على قطع الكارتون في بلاد أخرى دون أن يأبه بهم أحد.

إنني وحيد، لا عائلة ولا بيت ولا أصحاب ولا شفقة حتى !! بالكاد أكمل أسبوعا فقط في هذه البلاد لأشعر بنار الاغتراب؛ حيث لا أحد يهتم أو يشعر بأحد، الجميع مشغولون بأنفسهم فقط!!.

بدأت أتجول في الشوارع التي ما تزال فيها معالم الاحتفال برأس السنة، السيارات لا تتوقف رغم أن السّاعة تشير إلى منتصف الليل، والسماء بدأت تمطر من جديد وأنا أتحدث مع الله:

"يا إلهي لماذا جعلتها تمطر مرة أخرى وأنت تعلم أني لا أملك ثمن شراء المظل!؟ أهكذا هو قدري يا الله؟!. "

وبينما أنا أحادث الله، رأيت كوكبة من بعيد، وبعد أن تقدمت نحوهم تبين أنهم مجرد شباب يتحوطون أمام حانة ليلية، دخلت دون أن يوقفني أحد في الباب. كانت الحانة مزدحمة والجميع يحملون قنان و أكواب الخمر في اليد ويرقصون على موسيقى الروك والميتال. لم أجد مكانًا شاغرا لأجلس فيه فبقيت واقفا في حين كان الجميع يرقص بمحاذاتي، وبينما أنا كذلك ارتمت فتاة مخمورة على ظهري وشبكت يديها على عنقي حتى كادت تشنقني، التفت بسرعة ففطنت أن الفتاة كانت ترقص على مائدة خلفي وارتمت مباشرة علي. قلت لها بالإنجليزية، اسحبي يديك،

لكنها بدأت تهذي وتتحدث بالإسبانية دون أن تفلت يدها مني، أصبت بذعر كبير، كدت أن أدفعها لكن خشيت أن تسقط عليّ تهمة التحرش أو العنف من حيث لا أدري. كنت أنظر إلى عيني الفتاة التي بدت أنها أكثرت من الخمر والمخدرات. حاولت التودد إليها ومسايرتها في حركاتها وجنونها حتى تملصت منها، ثم قررت الخروج من الحانة، بيد أنني تذكرت المطر والبرد الذي ينتظراني خارجا فعدلت عن الفكرة وغيّرت فقط الزاوية. جلست في مكان آخر وبدأت أتأمل العالم اللّيلي حتى تقدم نحوي شخص إسباني مع فتاته وسألاني إن كنت أريد شراء الماريخوانا أو حبة إكستازي، وما إن اعتذرت لهما وغادرا حتى رأيت هاتفا ملقًّا على الأرض فقمت وأخذته وحملته إلى الأعلى وبدأت أسأل لمن يعود، غير أنه لا أحد انتبه لي، أو ربما لم يفهموا ما أقصد. لم أعرف ماذا سأفعل به. في الأول سوّلت لي نفسي بأن آخذه ما دمت قد أشهرته وسألت لمن يعود ولم يظهر صاحبه؛ لكن الضمير المتبقي اعتبر ذلك سرقة ما دام الجميع هنا في غير وعيهم، لهذا قررت إعطاء الهاتف لساقي الحانة وإراحة نفسي من المشاكل.

مكثت في تلك الحانة حتى حدود الثانية صباحًا، وهو الوقت الذي تُشتعل فيه الأضواء ويُطلب من الجميع مغادرة الحانة رغم أن السماء كانت ما تزال تمطر. خرجتِ الغالبية غير مبالية لا بالمطر ولا بالبرد، في حين طلبت بعض الفتيات من عامل الحانة منحهن أكياسا بلاستيكية نظيفة.

أخذت الفتيات الأكياس وغرسن فيها رؤوسهن حتى اشرأبت وأخرجن أيديهن من حاشيتي الكيس حتى أضحى الكيس البلاستيكي مثل القميص ثم خرجن إلى الشارع.!!

أمام الحانة مباشرة كان من الصعب علي معرفة ما إذا كان الفصل هنالك هو فصل الشتاء أم فصل الصيف، أطرقت في التفكير وبدأت أسأل نفسي هل هؤلاء الذين يرتدون هذه الثياب الصيفية لا يشعرون بالبرد مثلي؟؟! ثم أجيب: وحدهم الفقراء يشعرون بالبرد، أما الأغنياء فيملكون ثمن الفودكا والشمبانيا. ثم أقول لنفسي إنها الثانية صباحًا وليس لدي مكان أذهب إليه في هذا القر والمطر، أين سأتمم هذه الليلة، يجب أن أتحرك كيلا أشعر بالبرد، وفي نفس الوقت أقول، إذا تحركت ستبتل ثيابي وسأشعر بالبرد أكثر، وربما تعود إلي البواسير الملعونة.

ماذا سأفعل إذن؟؟ لماذا أيها الحظ التعيس؟؟

بقيت متوارٍ عن المطر تحت سقف إحدى المقاهي بالجوار، كنت أشعر بتعاسة كبيرة وأفكر في الاحتمالات التي من الممكن أن تقع لي عندما أصل إلى سان سيبستيان، المدينة الأكثر برودة من مدريد والتي لا أعرف فيها أي شخص هي الأخرى.

وبينما أنا منخرط في التفكير، رأيت فتاتين تهرولان تجاهي لكي تختبآ عن المطر، سمعتهما تتحدثان اللغة الإنجليزية، فكانت فرصة مناسبة أن أفتح معهما الحديث عساهما ترشداننني إلى حانة أتمم فيها الليل.

قالتا لي إنهما تعرفان حانة تبقى متاحة حتى الثامنة صباحا لكن يجب علي أن أدفع ستة يوروهات.

وبعد أن تحدثنا قليلا وعلمت أنهما ناشطتان في حركة Animalism وأنهما مهتمتان بالحيوانات، سردت عليهما قصة الحافلة وقلت لهما إنني لا أجد أين أنام هاته الليلة، علّهما تشفقان عن هذا الحيوان المتشرد، ولكي أسترد بعضا من كرامتي أضفت: أريد أن أدفع المال مقابل أريكة لكن لم أجد.

نظرتا إلى بعضهما البعض وقالتا لي بصوت يملؤه الحزن: نحن طالبتان، المنزل الذي نكتريه صغير جدا، لكن ستنام فيه هاته الليلة.

ما إن نطقا بذلك حتى انقطع المطر، إنه أفضل خبر سمعته في أوروبا هاته!!.

كان بيتهما يبعد زهاء عشرين دقيقة على الأقدام، مرت كلها حديث عن الحيوانات والبيئة وأزمة المناخ..

حين وصلتُ إلى منزلهما - والذي بالفعل كان صغيرا جدا، عبارة عن غرفة بسرير كبير واحد، ومطبخ وحمام وصالون ضيق - طلبتا مني شرب بعض المرق، لكنني آثرت بعض الأرز الذي وجدته في الثلاجة.

بعدها منحتا لي غطاء وأشارتا إلى كنبة الصالون وقالتا لي:

- هنا ستنام هذه الليلة، اعذرنا فكما ترى، المنزل صغير للغاية، اعذرنا مرة أخرى، ليلة طيبة . ثم ذهبتا لتعود إحداهن وتسألني: متى تريد أن تستيقظ غدا؟.
أجبتها بأنني أفضل النوم حتى الثامنة إذا كان هذا التوقيت مناسب لكما.
أجابت: حين نسهر لا نستيقظ في هذا الوقت، لكن حسنا لا مشكلة، ليلة طيبة!! ثم ذهبت إلى غرفتها التي كانت بجانب الصالون مباشرة.

ما إن وضعتُ رأسي على المخدة حتى نمت، لكن لم تكد تمر نصف ساعة حتى استيقظت على صوت الفتاتين وهنا تصرخان!! أصبت بذعر كبير وقمت من فراشي وهممت بالدخول إلى غرفتهما ومعرفة ما يحدث، لكن على السريع سمعت قهقهات متتابعة وضحك بين الفتاتين، ففهمت ما يحدث!! رجعت إلى فراشي بيد أن صوتهما الجهوري منعني من النوم. أكانا يمارسان الحب أم كانا يتدربان على الحرب على الرغم من أنه لا يوجد فرق بين الاثنين؟؟ المهم أنه لم يكن بإمكاني النوم على صوت مثل هذا، ولم أستطع النوم حتى تأكدت أن الفتاتين نامتا، حينها نمت ولم أستيقظ حتى التاسعة صباحا.

في الصباح تناولت الفطور معهما ثم شكرتهما وغادرت المنزل إلى المحطة مباشرة.

اشتريت تذكرة بثمن خمسين يورو في اتجاه سان سيبستيان، وانتظرت فقط نصف ساعة حتى أخذت الحافلة على الساعة الثانية عشر ونصف.

مرت سبع ساعات مثل البرق، إذ في حدود الساعة السابعة وبضع دقائق وجدت نفسي في محطة سان سيبستيان التي كانت هادئة مقارنة بمحطة مدريد، حتى إنني لم أر شرطيا واحدا فيها.

كان الجو في هذه المدينة الجميلة باردا جدا، لكنه كان يبعث على الراحة والأمل؛ إنها أول مدينة أشعر فيها براحة نفسية جيدة، علما أنني لم أعش فيها يوما واحدا.

ترجلت من المحطة أبحث عن مكان آكل فيه شيئا، رأيت محلا كُتب أعلاه باللغة العربية "مأكولات مغربية" فدخلت إليه واشتريت ساندويشا، ثم سألت صاحب المحل إن كان يعرف أحدا يمكنه أن يكتري لي غرفة أو سريرا لِلَيلة واحدة.

أجابني بأن الكراء في هذه المدينة باهض جدا، وأن ثمن السرير الواحد يصل إلى ثلاثين يورو لليلة واحدة، وإلى ثلاثمائة يورو لشهر واحد.
سألته: أين يمكن أن أجد هذا السرير؟؟
قال لي: إذا كنت ستكتري سريرا بثلاثين يورو فمن الأفضل أن تضيف عشرة يورو وتذهب إلى فندق قريب من هنا.
قلت له : ليس معي جواز سفر !.
قال لي: نعم، الآن فهمت، ليس أمامك خيار إذن؟! سأتصل بصديق أعرفه وأخبره إن كان هناك من سرير شاغر هاته الليلة. ثم ناولني كأسًا من الشاي مجانًا وطلب مني الانتظار ريثما ينقل إليّ الرد. بعد بضع دقائق من الانتظار نده علي وأخبرني بأنه حجز لي سريرا وأن صديقه سيأتي إلى هنا على الساعة التاسعة ونصف مساء ليأخذني إلى المنزل.

أخذت كأس شاي آخر وبدأت أسخن عليه أصابعي وأرشف منه إلى حين قدوم صاحب المنزل على نفس التوقيت الذي قيل لي.

بعد التحية أول شيء طلبه مني هو المال، قال لي: لن أخصم لك من الثمن يورو واحد، إلاّ إذا أردت أن تكتري أكثر من ليلة حينها سأخصم لك عشرة يورو.

توّسلت له أن يدع الثمن في حدود عشرين يورو مع إمكانية أن أستأجر السرير لأكثر من يوم؛ بيد أنه كان ذكيًّا وقال لي: لا مشكل، أعطني الآن الثمن كاملاً، وإذا أردتَ المبيت غدًا سآخذ منك عشرة يوروهات فقط.
اتفقت وإيّاه على الرغم أنه لم تكن لدي أي نية في المبيت هنا ليلة أخرى.
أوصلني إلى البيت، دخلنا فإذا هو عبارة عن بهو كبير به عدة أعمدة وعدة أسِرّة متراصة. أشار لي إلى سريري ثم قال لي: سيأتي بعض الأشخاص لينامو هنا معك لذا خذ حذرك على أشيائك، ثم أضاف وهو يغادر: إذا ضاع منك أي شيء ستكون أنت المسؤول الوحيد عن ذلك.

وما إن انصرف حتى دخل شابان مغربيان في مقتبل العمر وعلامات السُّكر بادية من طريقة كلامهما، كانا يتحدثان بصوت مرتفع عن سرقة قلادة ذهبية دون أن يلمحاني، يقول أحدهما للآخر: أنت لم تتعلم بعد كيف تسرق قلادة بطريقة فنية، يجب أن لا تكون عنيفا في السرقة. كنت أفتعل النوم وأستمع إلى حوارهما حول كيفية السرقة بطريقة فنية، كنت أراقبهما من تحت الغطاء بعين واحدة وهما يمثلان

كيف يمكن سرقة قلادة بطريقة فنية. قال أحدهما للآخر: سنمثل مشهدا أكون فيه أنا هو السّارق وأنت هو الضحية. ثم تقدم السارق إلى الضحية وسلّم عليه و قال له شيئا بالإسبانية ثم بدأ يراوغ برجليه كأنه يلعب معه الكرة في حين وضع يده اليسرى على عنقه، ثم ضرب صدره بيده اليمنى وقال للضحية لقد نزعت القلادة في حين أنت كنت تظن أنني ألعب معك. ثم أضاف قائلا: هذه الطريقة الفنية تسمى "COSI COSA " بحيث تستطيع من خلالها أن تسرق الضحية دون أن يشعر. يجب أن تتمرن عليها جيّدا.

هكذا كان يعطي دروسا في كيفية السرقة بطريقة فنية حتى دخل رجل خمسيني يتخبط من الخمر إلى أن وصل إلى سرير بالقرب مني ثم سقط على وجهه وبدأ في الشخير، وما هي إلا دقائق حتى دخل نفر آخر .

عمّ هرج كبير واختلطت الأصوات، البعض يأكل والبعض يشرب والبعض يدخن ولا أحد نائم غير الرجل الخمسيني. بقيّ البهو على هذا الحال حتى حدود الثانية صباحًا.

وبعد أن نام الجميع شعرت وكأن أحدا يتقدم نحوي، فأخذت الحيطة وأشعلت ضوء هاتفي لأجد أحدهم يبحث في قميص ذاك الخمسيني، نظر إليّ وقال لي إنني أريد سيجارة و "عمو" هذا صديقي.

لم أرد عليه ثم أطفأت ضوء الهاتف ورميت الغطاء على وجهي.

في تلك الليلة لم ير جفني النوم، بقيت مستيقظا طوال الليل أترقب متى يطلع النهار، لم أستطع النوم مع هؤلاء اللصوص، علمًا أنّه لم يكن لدي ما يسرق، وحذائي الذي أملكه وضعته تحت السرير وعقدته في إحدى إطاراته؛ لأنني كنت أعي جيدا ماذا تعني سرقة حذائي في تلك الوضعية التي كنت أعيشها ساعتها.

لم أستوعب كيف دفعت ثلاثين يورو لأنام في هذا المكان المقيت.

وصلتِ الساعة السابعة صباحا، شعرت بدوار في رأسي فقمت إلى المرحاض - والذي كانت رائحته تفقد الوعي - ثم غسلت وجهي وعدت بسرعة إلى السرير لأجد الرجل الخمسيني استيقظ وهو يسبُّ في الجميع: اللعنة على ابن القحبة الذي

سرق لي خمسة يورهات. لكن لا أحد كان يسمعه. تقدمت نحوه دون أن أنبس ببنت شفة، نظر إليّ وقال لي: اِحذر من هؤلاء اللصوص، إنهم يسرقون أي شيء وجدوه أمامهم، حتى لو وجدوا ثُبَّنًا مثقوبا سيسرقونه.

حاولت تهدئة هذا الخمسيني والتودد معه، بيد أنه واصل رمي السُّباب والقذف بأقبح الصفات حتى أسكته شاب عشريني قائلا بنبرة حادة: ألا ترى أننا نيام أيها العجوز، لماذا تصرخ مثل العاهرة. أجاب الخمسيني: لقد سرقوا نقودي، كيف لا أصرخ؟!

رد العشريني بوجه عابس: إذا سرق أحدٌ نقودك ضاجع والدته ولا تكتفي بالنباح مثل كلب شريد، دعنا ننام أرجوك.
سكت الرجل الخمسيني وطأطأ رأسه ثم همّ خارجا وهو يقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله .. يا رب اعف عني من هذه الغربة اللعينة.

تبعته إلى الخارج ثم ناديت عليه وبدأت أهدّئ فيه مرة أخرى.

تحدثت معه وسألته عن المكان الذي ننام فيه إن كان بالفعل يستأجره بنفس الثمن الذي قيل لي، فأخبرني أنه يكتري ذاك السرير بمائة يورو للشهر.

ذهبت وإيّاه إلى جمعية إسبانية تقدم المساعدات للمهاجرين، هناك حيث تناولنا الفطور الذي كان عبارة عن حليب وقهوة وبعض الحلويات التي وجدت تاريخ صلاحيتها قد انتهى بيوم واحد. وفي وقت الغذاء على الساعة الثانية عشر ونصف تناولنا بعض الأرز والخضروات بالإضافة إلى قنينة عصير منتهية الصلاحية بيومين. سألت القدماء هناك، فقالوا لي إن الأسواق الممتازة (تتبرع) بالمواد الغذائية التي تكاد تنتهي مدة صلاحيتها إلى الجمعيات، لهذا تجد أي شيء معلّب هنا إما أنه منتهي الصلاحية وإما كادت أن تنتهي، كما أن الجمعيات يربحون قدرا معينا من المال على كل فرد يتسجل معهم، ولهذا تجدهم يسجلون الناس فترة معينة فقط، ثم يطردونهم ليأتي أشخاص جدد ويربحون معهم المال أيضا. نعم لا شيء مجاني، هكذا تعمل الأمور هنا، الجمعيات تأخذ أموالا طائلة من الاتحاد الأوروبي من أجل إعانة المهاجرين في وضعية حرجة في حين هي لا تنفق سوى النزر اليسير مع كثير من الأغذية المنتهية الصلاحية.

غالبية المهاجرين غير الشرعيين هنا، بعد أن تطردهم الجمعيات، لا يجدون أين ينامون ولا ما يأكلون، وبالتالي لا يبقى لهم حل سوى السّرقة أو بيع الممنوعات؛ لأن ليس لديهم لا الحق في العمل ولا الحق في استئجار بيت قانونيا. هكذا يعيش المستضعفون من المهاجرين، ومن بينهم هذا الرجل الخمسيني الذي يعيش في وضعية بئيسة جدا!!

لم أشعر بالوقت وهو يمضي سريعا في هذه المدينة، لم أعرف ماذا سأفعل بالضبط هل أقضي هذه الليلة في هذه المدينة أم أذهب إلى irun ومنها أدخل إلى فرنسا بالليل.

استشرت مع الرجل الخمسيني فقال لي: إنني أعرف شخصًا يهرّب المهاجرين ويدخلهم إلى فرنسا بثمن مائة يورو، ثم استدرك قائلا: في حالتك هاته لا أنصحك بذلك، أنت لا تبدو مشبوهًا أو مهاجرا سريًّا، لهذا من الأفضل أن تدخل إلى فرنسا في الباص بشكل عادي دون أي مشكل.

سألني: لماذا تريد أن تذهب إلى فرنسا، هل لديك عائلة هناك؟؟
قلت: لا، أريد الذهاب إلى فرنسا ومن تم إلى ألمانيا؛ لأنني إذا بقيت هنا في إسبانيا سيتم ترحيلي.
قال: إذا لم تفعل شيئا سيئا لن يتم ترحيلك.
قلت: لقد هربت من مركز الشرطة، وإذا ألقي عليّ القبض سيتم ترحيلي لأنهم يملكون جميع بياناتي "صوري البيومترية وبصماتي" .
قال متعجبًا: ماذا فعلت هل ارتكبت جريمة ؟؟
قلت: نعم لقد ارتكبت جريمة شنعاء، لقد هربت باحثا عن الوطن!!.
الوطن !! ليت شعري، ما معنى الوطن ؟!

الوطن ليسَ قطعةً جغرافية، ولدتَ فيهَا صدفةً، الوطن أعقد من ذلكَ في التحديد، أيسرُ في الانتماء. نحنُ لا ننتمي إلى وطنٍ باعتباره حيّزًا مكانيًّا، ولا باعتباره أرضًا يعود جذرنا إليها، إن الوطن، هو أيّ بلدٍ تشعرُ فيه أنّك مواطن؛ أي تشعرُ فيه بإنسانيتك وحريتك وكرامتك؛ أي البلد الذي يلتزمُ بإعطائكَ حقّكَ الذي تستحّق دون تسويف أو مماطلة أو أن تدفعَ من أجله مقابل، وليسَ البلد الذي تشعرُ فيه بأنّك منعدم لا قيمةَ لكَ إذا لم تكن تملك مالا أو سلطة .. هذا باختصار معنى الوطن الذي هربنا بحثا عنه.

لم يكن هذا الرجل الخمسيني يستوعب مثل هذه الأشياء، فقد يئس من كل شيء ولم يعد همه سوى البحث عن ما يسد رمقه ويبقيه على قيد الحياة.

دنا النهار سريعا ولم يعد يكفيني الوقت لأذهب إلى irun وصلت الساعة السابعة مساء فذهبت بمعية الرجل الخمسيني إلى الجمعية من أجل العشاء.

بعد أن تناولت العشاء سألت المساعدة الاجتماعية عن إمكانية النوم في الجمعية، فأجابتي بالإيجاب بشروط هي كالتالي:
- أن تكون هذه هي أول مرة أتسجل معهم.
- أن ألتزم بالتوقيت والقانون الداخلي.
- أن أبيت ثلاث ليالٍ فقط.

وافقت على الشروط و تسجلت معهم بالاسم والصورة ثم أعطوني بطاقة وطلبوا مني الذهاب إلى الجهة الأخرى حيث مكان النوم.

قدمتُ البطاقة إلى أمينة الجمعية على الباب فرافقتني إلى غرفتي وأعطتني منشفة ومواد استحمام إضافة إلى ثياب داخلية جديدة ثم قالت لي، إذا أردت أن تنظف ثيابك ضعها في هذا المكان وبعدها غادرت.

أخذت دوشا ساخنًا شعرت معه بالحياة من جديد، ثم نمت نومًا مضطربا بسبب شخير أحد رفقائي في الغرفة، حتى حدود الساعة السابعة صباحا، وهو التوقيت الرسمي للاستيقاظ وتناول وجبة الفطور.

مباشرة بعد أن خرجت من الجمعية قصدت المحطة في اتجاه irun ومنها أخذت الباص لأدخل إلى فرنسا، بيد أن الشرطة صعدت في الحدود وبدأت تطلب بطاقات الهُوية.

وقفت أمامي شرطية فأعطيتها بطاقة الجمعية، نظرت إلى البطاقة وقالت لي باللغة الفرنسية أريد بطاقة الإقامة أو جواز السفر. قلت لها ليس لدي غير هاته البطاقة، فأنزلتني من الباص وأمرتني بمرافقتها إلى مخفر الشرطة. وما إن دخلت إلى المخفر حتى تأكدتُ أن نهاية الرحلة ستكون هنا.

استجوبتني الشرطية فأدليت بجميع البيانات بشكل صحيح خلا أمرًا واحدًا وهو فيما يتعلق بالشرطة.

كانت ستكون الأمور بخير لو أنني لم أكذب؛ إذ بعد أن قلت لها إنها أول مرة تقبض عليّ الشرطة، حتى أخبرتني الشرطية أنه يجب علي أن أضع البصمة لكي يُحفظ في مركز الشرطة وبعدها سيطلق سراحي.

انتظرت في مخفر الشرطة زهاء ساعة من الوقت بعد عملية التبصيم والتصوير. هنا علمت أنها النهاية حتما ويجب علي الهرب قبل فوات الآوان. لكن ما من حيلة، الشرطية تتقدم نحوي وتخبرني بأنني قيد الاعتقال وسيتم إحالتي على القضاء بتهمة الفرار من مركز الشرطة.

ابتلعت ريقي وأنا أسمع صدى كلماتها في أذني، القضاء.. تهمة... الاعتقال.. ترى ماذا فعلت بحق الجحيم، هل سرقت؟؟ هل تاجرت في الممنوعات؟؟ هل اعتديت على أحد؟؟

قضيت في المخفر ثلاثة أيام، مرت أسوء من الأيام التي قضيتها في المخفر السابق، كنت أبقى وحيدا بين أربعة جدران لا أحد أتحدث معه وأُنسي معه الوقت الذي يمر ببطء، تذكرت رفقائي في السجن المحكوم عليهم بسبب أنهم قالوا "لا" للنظام، أنّى لهم بهذه القوة ليتعايشوا مع السجن وهم من عشقوا وكتبوا الأشعار في الحرية؟!.

في اليوم الثالث على الساعة الثانية عشر زوالا، تم أخذي إلى المحكمة؛ هناك وجدت مترجما تونسيا ومحام إسباني ينتظراني. سألني القاضي عن الاسم والنسب والعمر والدولة، فأجبت عن الأسئلة بشكل صحيح. ثم سألني قائلا: لماذا جئت إلى هنا؟؟

قلت للمترجم أن يخبره أنني جئت من أجل العمل والاستقرار هنا.
كنت أعرف أن هذا الجواب نمطي وجميع من يطرح عليه هذا السؤال يجيب نفس الجواب.
سألني: لماذا هربت من مخفر الشرطة؟

أجبت: كنت خائفا أن يتم ترحيلي.
سأل: لماذا تخاف أن يتم ترحيلك، هل حياتك في خطر هناك؟
أجبت: نعم.
ردّ: لكن ليس في المغرب من حرب.
قلت: لا وجود لحرب لا يعني أبدا أن البلد يعيش في أمن وأمان.
ثم بدأ يتحدث القاضي مع المحامي دون أن يترجم لي المترجم أي شيء.

جمع القاضي بضع وثائق ومدهم إلى المترجم، ثم قال لي هذا الأخير بالحرف: سينقلونك الآن إلى مدريد.

سألته مستغربا: كيف، لماذا مدريد؟؟
قال لي: بكل أسف، سينقلونك إلى سجن الأوراق بمدريد ومنها سيتم ترحيلك إلى المغرب، لديك حل وحيد وهو أن توكّل محام لكيلا يتم ترحيلك، وأكيد ستحتاج إلى من يساعدك.

خرجت من المحكمة مقيّد اليدين يشدني شرطي من ذراعي وآخر يتعقبني من الخلف كما لو أنني مجرم دولي، تم اقتيادي إلى سيارة الشرطة التي كانت تنتظرني أمام المحكمة ثم أرجعوني مرة أخرى إلى مخفر الشرطة ومنها مباشرة إلى سجن الأوراق بمدريد.

وصلتُ إلى مدريد ليلاً نزلت مقيّد اليدين بمعية الشرطيان وتوجهنا إلى إدارة السجن؛ هناك منح الشرطي ملفي إلى مدير السجن، في حين سلّمني الآخر إلى أحد الحراس الذي أخذني بدوره إلى مكتبه وطلب مني التوقيع على بعض الوثائق التي أجهل ماهيتها.

دلفنا إلى صالة كبيرة بها عدة دواليب، ثم أمرني السّجان بنزع جميع ثيابي وترك جميع أشيائي من هاتف ومال، وارتداء ثياب السجن وبعدها تقدم بي نحو عنبر كبير يؤدى إلى جناحين، واحد من جهة اليمين والآخر من جهة اليسار، اقتيد بي إلى جهة اليسار ومنها صعدنا إلى طبقة ثانية تضم عدة زنازين مصطفة مع بعضها البعض، أوقفني السّجان أمام الزنزانة رقم ثلاثين و فتح الباب ببطاقة إلكترونية ثم دفعني إلى الغرفة وأوصد عليّ الباب.

مكثت في تلك الغرفة سبعة أيام دون أن أخرج منها، كانوا يحضرون لي الأكل والشراب ويمضون. وفي اليوم السابع أحضروا لي الطبيب، فحدثت بيني وبينه مشاداة كلامية؛ سألني إن كنت أعاني من أي مرض، فأجبته سلبا، فقال لي سأعطيك مهدئا ثم أخرج حقنة وأراد حقنها في ساعدي، لكنني رفضت وقلت له، إنني بخير، هادئ بشكل طبيعي وغير عنيف ولم أقم بأي سلوك لا أخلاقي مع أي أحد.

رد قائلا بابتسامة مصطنعة إنه ليس مهدئا خطيرا إنه فقط فيتامين.

أجبته بلغة هادئة: هل تستهزئ بي؟؟ هل تظن أنني غبي لهاته الدرجة حتى لا أفرق بين الفيتامين والمهدئ. ثم أضفت: أنا أتفهم إدارة السجن جيدا؛ حيث إن غالبية المساجين هنا مدمنون على المخدرات، وبالتالي تحرص الإدارة لكي تتفادى كثيرا من المشاكل أن تحقن هؤلاء بمهدئ فيه نسبة معينة من المخدرات. أما في حالتي هاته فلا أحتاج إلى أي حقنة، إنها ستسبب لي مضاعفات لا غير.

نظر إليّ الطبيب وجمع أغراضه وقال لي على الأقل وقّعْ في هذه الوثيقة دون مشاكل.
ابتسمت وقلت له: سأوقّع، لا مشكلة فأنا مذ أتيت إلى هذه البلاد وأنا أُجبر على توقيع وثائق لا أفهمها.

غادر الطبيب وتركني بين أربعة جدران صماء، تمنيت لو بقي معي يخفف عني الوحدة القاتلة والتفكير الحاد.

في اليوم الثامن تم ايقاظي على الساعة السادسة ونصف صباحا، قيل لي إن لدي نصف ساعة فقط لآخذ دوشا وأنتظر أمام الباب وإلاّ سأظل في الزنزانة ليوم آخر.

على الساعة السادسة ونصف تحديدا اقتيد بي إلى صالة تتوسطها مائدة طويلة معدة سلفا لتناول الفطور، جلست على كرسي خشبي وبينما أنا أتناول الفطور المكون من حليب وقهوة وخبزة صغيرة مع قليل من الجبن والزيت، لمحت عيني شخصا بدت ملامحه مألوفة عندي، حاولت تذكر أين رأيت هذا الشخص غير أنني لم أفلح.

انتهت نصف ساعة المخصصة للفطور فطلبوا منا العودة إلى الزنازين والاستعداد للحصة الرياضية على الساعة السابعة والنصف.

ارتديت البدلة الرياضية التي كانت عبارة عن قميص و سروال رياضي خفيف ثم خرجت بمعية السّجان إلى ساحة يتوسطها ملعبان واحد مخصص لكرة القدم والآخر مخصص لكرة السلة، ثم تقدمتُ إلى ملعب كرة القدم، فقد كانت لدي رغبة كبيرة في لعب مبارة كرة القدم والتخلص من كل الطاقة السلبية التي حجّت داخلي في تلك الزنزانة اللعينة، وما إن اقتربت من الملعب حتى سمعت أحدهم ينادي عليّ باسمي، التفتُّ فإذا هو كريم الذي افترقت معه في مخفر الشرطة ب Cádiz . سألني وهو يعانقني:

- ماذا تفعل هنا ؟ أين كنت؟
- سيقومون بترحيلي هذا هو قدري التعيس.
- لا، ليس هنالك من ترحيل، لقد تحدثنا مع محام وقال لنا ستبقون هنا مدة أربعين يوما ثم سيطلقون سراحكم.
- لن يطلقوا سراح أحد، إنها لعبة نفسية قديمة كيلا تتمردوا .
- من أين عرفت ذلك، وأين أخذوك كل هذه المدة ؟
- لقد أخذوني إلى مخفر شرطة آخر، ومن هناك تم نقلي إلى هذا السجن الذي قضيت فيه مدة أسبوع في زنزانة انفرادية!!
- سمعنا أنك هربت، هل هذا صحيح ؟
- نعم .
- نحن أيضًا حاولنا الهرب بخطة "الفأر" ولم ينجح منا أحد سوى أيوب صديقك.
- هذا خبر مفرح، أيوب لاعب كرة القدم، يجيد المراوغة كيف تستطيع الشرطة القبض عليه.
- وأنت كيف تم القبض عليك مرة أخرى؟
- في الحدود بين إسبانيا وفرنسا.
ابتسم كريم وقال لي حتى لو تم ترحيلنا سنعود في قارب آخر، هيا لنلعب كرة القدم.

كانت أمامنا ساعة ونصف مخصصة للرياضة، وهو الوقت الوحيد الذي كنا نشعر فيه بالقليل من الحرية، إضافة إلى الوقت المخصص لمشاهدة التلفاز.

في ذلك السّجن التقيت بعدد من الرفاق الذين أبحروا معي، كريم وسعيد والبدين والربان ومساعده إضافة إلى بعض الأشخاص الذين أعرفهم من ملامحهم فقط.

قضيت في تلك الزنزانة الانفرادية إحدى وثلاثين يوما، مرت كلها روتين قاتل، ما أفعله اليوم أعيده في اليوم الآخر، كنت كلما دخلت إلى الزنزانة أتذكر رفقائي في السجن بالمغرب وعن معاناتهم اليومية، تراهم يخالجهم الندم وهم يشاهدون أن لا شيء تغير؟ وأن مواقفهم ونضالاتهم ذهبت سدىً ؟ السجن يجعل الإنسان يغيّر مجموعة من قناعاته ومنهم من يجعله يتخلى عن مبادئه حتى، تماما مثلما وقع مع عدد من معتقلي الرأي والسياسة الذين أصيبوا بمتلازمة ستوكهولم وهم داخل السجن.

في يوم السبت ١٦ فبراير على الساعة العاشرة صباحًا خرجت من السّجن مثلما دخلت إليه مكبّل اليدين يشدني شرطي من مرفقي وآخر يتبعني من الخلف، ركبت في نفس الحافلة التي كانت قد نقلتنا من الميناء إلى مخفر الشرطة ب cádiz ثم أقفل علي السّجان في أحد الزنازين التي تحتوي على كرسيين.

في الوهلة الأولى ظننت أنه سيتم ترحيلي أنا فقط، لكن ما هي إلا دقائق حتى سمعت صوت كريم بالإضافة إلى عدد من المتمردين الذين يحتجون ويلقون السُّباب على حراس السجن باللغة العربية واللغة الإسبانية ويضربون رؤوسهم على الزنازين الداخلية ويهددونهم بالانتحار. كنت أستمع إلى اللغط والضرب والاحتجاج وأطلب من الله أن لا يدخلوا معي أي شخص عنيف، وكأن الله استمع إلى دعائي فأدخلوا معي ذاك الشخص الذي تشابه لي مع أحدهم في قاعة الفطور.

كان هادئا ولم يكلمني حتى بادرته بسؤال: هل أبحرت معنا في قارب "الفقيه"؟
أجاب مقتضبًا: نعم.
قلت له: لقد رأيتك في قاعة الفطور وسألت نفسي أين رأيتك!!.
أومأ برأسه وقال لي: نعم.

فهمت من طريقة حديثه أنه لا يريد التحدث معي، وكأنه يقصد ب "نعم" أصمت من فضلك.
انطلقت الحافلة على الساعة الحادية عشر صباحا، ووصلنا إلى مدينة الخزيرات "Algeciras " على الساعة الخامسة مساء.

اقتيد بنا مباشرة إلى مخفر الشرطة بالخزيرات أو بالجزيرة الخضراء؛ المدينة التي وُقّعَ فيها أن المغرب هو مستعمرة فرنسية إسبانية سنة ١٩٠٦ والتي مهدت إلى استعمار رسمي سنة ١٩١٢ و بعدها إلى استعمار غير رسمي سنة ١٩٥٦.

مكثنا في مخفر الشرطة ليلة السبت ويوم الأحد، أُجبرنا مرة أخرى على توقيع أوراق مكتوبة بالإسبانية وغير مترجمة، وفي صباح يوم الاثنين ١٨ فبراير على الساعة الحادية عشر تم تقديمنا للشرطة المغربية بميناء طنجة، ثم نقلونا إلى مخفر الشرطة هناك، قضينا فيه ثمانيةً وأربعين ساعة مرت سيئة بل أكثر سوءا من مخافر الشرطة بإسبانيا، فعلى الأقل في إسبانيا كانت تتصرف معنا الشرطة بقليل من الإنسانية والاحترام، على الرغم أننا قد دخلنا إلى بلادهم بطريقة غير قانونية، أما هنا في بلادنا التي نتواجد فيها بطريقة قانونية، فقد كانت تتصرف معنا الشرطة بطريقة دنيئة وعنيفة؛ بل حتى الأسئلة التي طرحت علينا من قِبل مفتش الشرطة كانت احتقارية مثل:

- لماذا عدت ؟؟ لمْ تعجبك إسبانيا أم ماذا؟؟

لم يكن غرضهم بهاته الأسئلة معرفة الجواب، وإنما كان غرضهم هو استفزازنا، نحن العائدون من الموت، لم يكونوا يستنطقوننا وإلاّ كانوا قد طرحوا علينا الأسئلة بموضوعية على هذا الشكل:

- لماذا غادرت المغرب ؟؟ لم يعد يعجبك المغرب أم ماذا؟؟

بعد مغادرة مخفر الشرطة اجتمعت وكريم إضافة إلى عدد من المرحّلين وبدأنا نتحدث عن ماذا سنفعل.

قال كريم: سأعود إلى مدينة آسفي وبعدها سأذهب إلى مدينة الناظور لكي أهاجر مجددا إلى أوروبا، لكن هذه المرة لن تكون عبر قارب مطاطي، بل سأختبئ في إحدى الشاحنات التي تنقل البضائع من مدينة الناظور إلى إسبانيا.
ثم أعقب سعيد وزميله: نحن أيضا سنتقاتل مرة أخرى كي نهاجر إلى أوروبا.
قال البدين: أنا لن أفكر في الهجرة مجددا.

ثم قال صديق آخر: أنا سأعود إلى آسفي وأبحث عن طريقة قانونية للسفر إلى أوروبا. ثم عكس لي السؤال: وأنت ماذا ستفعل ؟
قلت: سأبقى هنا في مدينة طنجة وسأبحث عن عمل في البناء ريثما يقضي الله أمرا مفعولا.
أعقب سعيد: أنا أيضا سأبقى هنا، ليس لدي ما أفعله في آسفي.
قلت: في الواقع ليس لدينا جميعنا ما نفعله بدون مال، ستحتاجون إلى ثمن تذكرة الحافلة أولا.
ردّ كريم : سأذهب إلى المحطة و أستعطف الناس حتى أجمع ثمن التذكرة.
قال آخر: سأذهب معك.
ردّ كريم : موافق، ثم غادرا بعد أن توادعا معنا.
لم أكن حينها أملك أي شيء، فالهاتف والمال الذي أخذَته مني الشرطة لم أقم باسترداده. سألت سعيد إن كان يملك هاتفا فأجاب بالايجاب. أخذته منه ورحنا نبحث عن شبكة الانترنت اللاسلكي، كي نتمكن من الاتصال بصديقي حميد الذي يعمل في البناء.

ذهبنا إلى إحدى المقاهي بالجوار ثم طلبنا من النادل أن يمنحنا القنّ السري لشبكة الانترنت اللاسلكي من أجل أمر مستعجل، وافق بكل حبور ففتحت الانترنت وسجّلت الدخول على موقع فايسبوك وكتبت رسالة لصديقي أخبره فيها أنني أتواجد في مدينة طنجة وليس لدي مكان أذهب إليه، ومن حسن الحظ أن حسابه كان نشطًا، فرد على رسالتي قائلا: أرسل لي رقم هاتفك.

كتبت له رقم سعيد على نحو سريع وبعدها اتصل بي وتواعدنا أن نلتقي على الساعة الخامسة مساءً أمام محطة القطار بالقرب من سكناه، وكذلك حصل.

نمنا تلك الليلة في منزل حميد، غير مصدقين أننا بالفعل عدنا إلى تحت الصفر.

الفصل الثاني

في العالم هناك:

الكثير من القوانين، القليل من الحقوق.

الكثير من الأديان، القليل من التعايش.

الكثير من الحروب، القليل من السلام.

الكثير من الخطابات، القليل من الحقيقة.

الكثير من المال، القليل من العدل.

الكثير من التكنولوجيا، القليل من القيم.

«ما إن تغادر اليابسة وتذهب في البحر حيث لا يوجد أحد يراقب ما تفعله تكون قد وطأت كوكبا مختلفا.. لا قوانين فيه»
هيلين بورس

«يمكنك أن ترمي بمفتاحك في البحر طالما: لا القفل في الباب، لا الباب في البيت و لا البيت هناك.»
سركون بولص

الهاتف يرن !!

- عبدو ؟!
- نعم، من معي ؟؟
- عبدالله، الشخص الذي استضفته في بيتك!!
- نعم أتذكرك، لكَم اتصلت بك ولم ترد.
- لقد تم ترحيلي وحجز عن هاتفي، ورقمك هذا أرسلته لي والدتي التي قامت بحفظ رقمك عندما اتصلتُ بها من خلال هاتفك.
- لماذا لم تتّصل عندما أرادوا ترحيلك، ما كنت سأدعهم يرحلونك !!
- ما حدث قد حدث، أنا الآن في مدينة طنجة لأكثر من شهر، لا أستطيع العودة إلى مدينة آسفي، فأنا أبحث عن طريقة لأهاجر مرة أخرى.
- أنظر، سأتصل بك بعد ساعة، ربما أستطيع مساعدتك.
انقطع الخط؛
وبعد أقل من ساعة رنّ الهاتف على رقمه:

- هل تريد فعلا أن تأتي إلى أوروبا بعد ثلاثة أيام من الآن ؟
- نعم، أريد لكن لا أملك المال.
- أعرف ذلك، في المساء سيتصل بك أحد معارفي اسمه سي فاروق وسيخبرك بكل شيء.
- حسنا، شكرا سنبقى على اتصال.
انقطع الخط وبدأت أفكر في كلام عبدو الملغّز، أتساءل كيف سأسافر إلى أوروبا بعد ثلاثة أيام، وليس لدي تأشيرة أو جواز سفر، كما أنه لم يعد لي الحق في الدخول إلى الأراضي الإسبانية مدة خمس سنوات، إذن كيف يعقل هذا السفر ؟ هل يمكن ؟ ثم أجيب نفسي، نعم ربما يعرف أحدا يزوّر جوازات السّفر !

كنت أنتظر مكالمة سي فاروق على أحرّ من الجمر لكي ينحبس هذا الوابل من الأسئلة التي باغتتني على حين غرة، والتي لم تتوقف حتى اتصل بي على الساعة السادسة مساءً وطلب مني أن ألتقي به في مدينة أصيلة.

كانت مدينة أصيلة هاته تبعد عن مدينة طنجة زهاء أربعين كيلومترا ونيفًا، وكان بإمكاني السفر إليها في ذاك المساء، غير أنني فضلت الانتظار حتى الغد.

قلت لصديقي حميد إنني سأتعذر عن العمل في الغد؛ لأنني مضطر أن أسافر إلى مدينة أصيلة من أجل مقابلة عمل في إحدى شركات الاتصال. لم يكن حميد ذا مستوىً تعليميٍّ جيّد لكي يناقش معي الأمر، فقط تمنى لي حظا سعيدا.

في اليوم الموالي على الساعة الثامنة صباحا، ذهبت إلى مدينة أصيلة وتقابلت مع صاحب عبدو سي فاروق. كان رجلا أنيقا ويتحدث معي بكياسة و رزانة وهدوء تام .

قال لي وهو يمج من سيجارة الونستون: ستبحر يوم الأربعاء إن شاء الله.
قلت وعلامات الدهشة باديةٌ على وجهي: على متن قارب؟؟
قال ببرودة: إن شاء الله.
قلت بلغة حازمة: لا، لا يمكنني، لقد سبق أن أبحرت في قارب توفي فيه ثلاثة أشخاص أمام عيني.
قال بنبرة هادئة: أنتم أبحرتم في قارب مطاطي بطريقة عشوائية، نحن سنبحر في يخت.
قلت مستغربًا: يخت ؟!
قال مؤكدًا: نعم . الآن أخبرني هل ستأتي أم لا؟؟
قلت مترددا: نعم..... موافق.
قال: ستبقى في منزلي حتى مساء الغد.

وفي طريقنا إلى منزله أضاف قائلا: أنت محظوظ، ستبحر دون أن تدفع أي درهم، يجب أن تتصل بعبدو وتشكره.

كان يتحدث معي هذا الشخص بثقة في النفس وكاريزما قوية، جعلتني أوافق على كل كلامه دون أن أستوعبه حتى، كنت أحكي له ما وقع لي في الرحلة البحرية الأولى، كتعطل القارب وموت بعض الشباب، فكان يبتسم ويردد: أنت محظوظ، لن تقع هذه الأشياء في يختنا.

حين وصلنا إلى منزله اتصلت بعبدو وشكرته على مساعدته ثم حاولت معرفة التفاصيل، بيد أنه لم يطلعني على أي شيء، قال لي فقط إن هذه الرحلة ستكون آمنة. وما إن انقطع الخط حتى خالجني شعور داخلي يتنبّأ بوقوع شيء سيئ، لكن لم أتجرأ أن أعدل عن فكرة الإبحار مجددا طالما هي مجانية وستكون على متن يخت كما يقول.

***

في اليوم التالي على الساعة الثانية عشر ليلا، دخلنا (أنا وسي فاروق) على متن سيارته BMW إلى ميناء أصيلة عبر البوابة الرئيسية التي كان يقف فيها ثلاثة رجال من الشرطة، دون أن يوقفنا أو يسألنا أحد. ركنا السيارة في موقف الميناء وترجلنا نحو إحدى سفن الصيد، هناك افترقت مع سي فاروق وركبت في السفينة دون أن أسأله إذا ما كانت هذه السفينة هي اليخت الذي تحدث عنه. أنزلني أحد الأشخاص إلى عنبر السفينة طالبا مني الصمت، وجدت ما يقارب عشرة أشخاص، كانت هناك فتاتان في عقدهما الثاني، وامرأة مع ابنها ذي الأربعة أعوام، أما البقية فكانوا كلّهم شباب تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والثلاثين، يجلسون في العنبر ويتحدثون بصوت منخفض.

بعد برهة اشتغل محرك السفينة وغادرنا الميناء في هدوء تام ودون مشاكل تذكر خلا بعض الدوار الذي أصاب بعضنا.

واصلنا الإبحار في السفينة لأكثر من خمس ساعات، ثم توقفت السفينة دون أن يخبرنا أحد بما حصل، كنا نسمع فقط حركات فوق رؤوسنا لا نعرف طبيعتها، وبعد نصف ساعة من توقف السفينة، نزل إلينا شخص نحيف الجسد وطلب منا الصعود.

صعدنا على سطح السفينة فوجنا يختا متوسط الحجم cruisers yachts 330 express يركن بمحاذاة السفينة، قال لنا النحيف بهدوء: ستتمموا الإبحار على متن هذا اليخت فهو أسرع، ثم طلب منا أن نتقدم مثنى مثنى في هدوء تام و بدون استعجال.

نزل الجميع إلى اليخت في حين تعمدتُ أن أتأخر في السفينة لأحاول فهم ما يحدث، ولم أشعر حتى قلت للرجل النحيف، لماذا لم نتمم الإبحار في هذه السفينة، هل ملأتم اليخت بالحشيش؟!! أنا لن أركب في هذا اليخت، سأبقى في هذه السفينة حتى أعود إلى مدينة أصيلة

نظر إليّ النحيف بغضب ثم أخرج مسدس جلوك ١٨ عيار ٩ ملم ووضع فوهته على رأسي، ثم قال لي بنبرة حادة: هل تعلم كم قتلت من شخص بهذا المسدس الهادئ، ثم استأنف قائلا وهو يدفع سبطانة المسدس تجاه رأسي: أنت تبحث عن المشاكل، إن لم تركب اليخت سأقتلك و أرميك في هذا البحر.

بدأت أرتعد وكلي وجل ورهبة، فقدت من خلالها ملكة التفكير كليّا، وتعرّق وجهي كما لو أنني في سباق، بدأتُ أتلعثم في كلامي، أبتِ الحروف أن تخرج من حلقي، أتنفس بصعوبة، وأنا أقول له، بلهجة متقاطعة دون أن أدرك ما أقوله: أرجوك لا تقتلني، ليس من أجلي، بل من أجل والدتي المريضة، أرجوك لا تقتلني، سأفعل ما تريد، فقط لا تقتلني، ثم انخرطت في بكاء شديد.

لم أبكِ منذ أمد طويل، لا أذكر بالتحديد متى كانت آخر مرة بكيت فيها، لكن مجمل ما أذكره أنها أعوام كثيرة. في الحقيقة، حينما انهمرت العبرات في مقلتي واحمّرت عيناي من البكاء، لم أكن أبكي خوفا من أن يقتلني هذا النحيف، بل كنت أبكي حسرة على أمي وأبي اللذين لم أذهب إلى رؤيتهما؛ أبكي حزني وضعفي الذي طالما أخفيته عن الجميع؛ بكيت لأنني شعرت بنفسي جبانا، حيث صدّقت خدعة عبدو وقوله إن هذه الرحلة ستكون آمنة؛ بكيت لأنني ساعتها كنت محتاجا للبكاء كي أستفيق من جديد، ولم أبك -أبدا- من أجل أن يشفق عني؛ لأنني كنت قد قرأت في عينيه حينها إشارات الحقد والعنف وما من أمل في أن أحرّك عاطفتَه بدموع لن تلين قلبه الصلب.

ملأ النحيف حجيرة الخرطوشة بالذخيرة، وقال لي بصوته الرقيق ذي النبرة الحادة:

- المسدس ممتلئ الآن، إن لم تفعل ما آمرك به، ستكون أول جملة أتفوه بها، بعد سماعي لصوت الرصاصة التي ستخترق رأسك اللعين، مفهوم؟؟
"مفهوم ، شكرا لك" قلت له وأنا أتنفس بصعوبة كما لو أنني أحتضر.

نطق رفيقه وهو يعلق بندقية إم ١٦ :
- أنت محظوظ يا ابن العاهرة، لكن سأنصحك نصيحة صغيرة، إذا أردت أن يبقى الحظ إلى جانبك، تذكّر أن هذه البندقية التي أحمل يمكنها إصابة الهدف على بعد ثلاثة كيلومترات، تذكّر أيضا أن خرطوشة التغذية مملوءة بعشرين طلقة.

لعنته في نفسي، وقلت له أمي أشرف من أمك، قلت ذلك داخلي دون أن يسمعني أحد.

طلب مني النحيف أن أتجرّد من ثيابي على السفينة، ففعلت ذلك دون تردد، أتى بكيسين مترعين بالكوكايين، ووضع واحدًا على بطني والآخر على ظهري، ثم ألصقهما جيدا على جسدي بواسطة لاصق أسود، ثم لطم رأسي وقال لي: الآن ارتدِ ثيابك أيها البطل، أنت الآن شريكٌ معنا.

ارتديت ثيابي على عجل، ثم أنزلوني إلى اليخت، كان الكل يلتزم الصمت، ومنصاع للأوامر دون أن يعلموا ما حدث لي مع النحيف على ظهر السفينة، التزمت الصمت وأنا أتذكر صورة المسدس الذي وضع فوهته على رأسي في بحر لا أعرف شرقه من غربه.

انطلق اليخت على ضوء الصباح، ثم عمّ صمت عميق. النحيف الذي هدّدني بالقتل، أخرج هاتف نوكيا E72 الذي لا تلتقطه الرادارات، وتعمل فيه خاصية الخرائط بدون انترنت، ووضع السماعة على أذنه، ثم قال وهو يتحدث مع أحدهم:

- الجو هادئ، سأكون في المطعم على الساعة العاشرة. أمسية طيبة!!

ثم أقفل الخط وهو يطمئن الركاب، وابتسامة ماكرة لا تفارق وجهه: ستتناولون الغذاء في أرض أجدادكم، لا تخافوا!؟

أعاد الهاتف إلى فتحة في جاكيت من ماركة نايك، وأخرج علبة سجائر لم يسبق لي أن رأيتها من قبل، ثم أشعل سيجارة وبدأ ينفث الدخان إلى الأعلى وينظر إلى السماء، وبينما كان يرفع رأسه نافثا الدخان إلى الأعلى، كان يبدو وشم على عنقه عبارة عن قلب بجانبه نار. دخّن نصف السيجارة، ورمى نصفها في الماء وهو يغني باللغة الإسبانية.

في لحظة من اللحظات تساءلت: ماذا أفعل هنا ؟؟ أي فكرة مجنونة هاته فكّرت فيها؟؟ لماذا أقحمت نفسي في هذه الورطة؟؟ لماذا أقدمت على هذا الانتحار الخطير مرة أخرى؟؟ لكن في نفس الوقت، تذكرت الويلات التي عشتها في الماضي؛ تلك الورطة الحقيقية التي كنت أعيشها كل يوم؛ تلك الأيام القليلة التي عشتها في مدينة طنجة علمتني أشياء كثيرة؛ ذاك العمل الشاق الذي كنت أعمله بثمن بخس في ورشات البناء، كل هذا جعلني أتوقف عن التساؤل وجلد الذات، واقنعت نفسي أن هذا ما كان يجب أن أفعل.

مرّت ساعات وأنا أتجمد بالبرد والجوع، وحين بدأ الظلام يدنو شيئا فشيئا، أخرج النحيف محفظة كبيرة بها عدد من علب البسكويت وقناني الماء ذات نصف لتر، وبدأ يعطي كل فرد، قنينة ماء و علبة بسكويت "هنريس". كنت أسابق الزمن حتى يصل إليّ، ويمنحني شربة ماء و بسكويتا أسكت به الجوع، لكن ابن اللعينة تخطاني، وقال لي: تحمّل ضريبة بطولتك. ثم خطب بصوت خشن: "إذا فكرّ أحدكم أن يعطيه أي شيء، لن أفكر في مصيره".

بعد أن أرخى الليل كامل غطائه، طلب النحيف من الجميع، ارتداء سترات النجاة، خلا المرأة التي تحضن ابنها ذي الأربعة أعوام والفتاتين.

رمى على وجهي سترة سوداء اللّون وأمرني بارتدائها، تعجّبت أن تكون سترة بلون غامق، بحيث لا يُرى لونها لا من قريب ولا من بعيد، حملتها بيدي فإذا هي ثقيلة، و بعد أن أدخلتها من رأسي، غرست أناملي في السترة، فإذا هي مملوءة عن آخرها من الداخل.

لكن بمَ كانت مملوءة ؟؟

كان يخالجني حدس مؤكد، أنها مليئة بالكوكايين، لكن لم أقوَ على التّفوه بذلك أمام أحد، فكلما هممت بفعل شيء أو التفوه بشيء، أستحضر الذخيرة التي تنتظرني في المسدس فأعدل عن الفكرة تمامًا.

بعد دقائق من ارتدائنا سترات النجاة، بدا للعيان ضوءا ينحو نحونا، يبعد عنا زهاء أربعة أميالٍ بحرية. نطق النحيف قائلا:

- التزموا الصمت، وسيكون كل شيء على ما يرام.

أصاب كل من على القارب هلع كبير ورهبة مربكة، حيث ظنوا -وأنا معهم- أن الضوء القادم، إنما هو ضوء خفر السواحل، وأنَّ أموالَهم راحت سدىً، هكذا فكّر الكل.

طلب النَّحيف من الربان الذي يربط البندقية أمام بطنه أن يوقف اليخت. هزتنا موجه من الرّعب، وتعالت القهقهات وكثُرت الهمهمات بين كل من يركب اليخت. لِلَحظة؛ فقدت إحساسي بنفسي، أمعائي التي كان يصدر منها صوت الغرث، توقفت هي الأخرى عن التفكير في الطعام، وبدأت تفكر في المخدرات التي ألصقها النحيف على جسدي.

الصبي الذي تحمله أمه في حضنها، كان يغط في نوم عميق، حاولت والدته أن توقظه، لكن النحيف منعها قائلا:

- لا توقظي الولد، نحن لم نصل بعد، إذا استطعت حاولي أن تنامي أنتِ أيضًا.

جرّت الأم ابنها إلى صدرها وبسطت رجليّها التي كادتا أن تتشللان من طول الجمود وعدم الحركة، أما الفتاتان، فكانتا تجلسان القرفصاء وتغمسان وجهيهما بين ركبتيهما اتقاءً للزمهرير الذي يخترق الجسم كالسّهام، أو ربما تفعلان ذلك تحسرًا وندمًا لست أدري!!

دنا الضوء القادم شيئا فشيئا، حتى بدا جليّا لنا، وتبين أنه قارب ذو محرك انفجاري في لون الأبيض، يعتليه رفقة عددهم أربعة، بما فيهم الربان الذي يقبع داخل قمرة القيادة. كان يتقدم الرفقة سيد ببدلة رسمية بيضاء وحذاء أسود، وقبعة أكوبرا بيضاء ونظارة سوداء اللون، كان يقف على مقدم القارب، وهو يدخن سيجار 'cohiba' الكوبي ، وحين التصق قاربه باليخت الذي نركب، تسنى لي رؤيته بوضوح، فبدا لي أن الطاقم ليس مغربيا، وأن كل هؤلاء الأربعة أجانب؛ لأن كل شيء كان يوحي بذلك، شكلهم ولباسهم بالأساس. ظلّ هذا هو افتراضي، حتى نطق قائدهم وعزّز ما افترضته سلفًا.

" مرحبًا يا مُعلم (Hola professor) " قال ذلك بلغة إسبانية صرفة. كانت هذه هي الجملة الوحيدة التي استطعت أن أفهمها.

قفز قائد القارب ذي المحرك الانفجاري إلى اليخت الذي نركبه بخفة سارق محترف، وانخرط متحدثا مع النحيف الذي كان يناديه ب "simo " كانا يتحدثان بالإسبانية فقط، حاولت أن أحرز موضوع حديثهما وما ينويان فعله؛ لكن دون جدوى، فحتى لو تكلموا بالعربية ما كنت سأفهم شيئا؛ لأن مثل هؤلاء تكون لديهم لغة خاصة يفهمونها حصرا.

في خضم حديثهما، استغليت انشغال الجميع، وهمست لصاحبٍ يجلس بجانبي" هل تعرف من هؤلاء؟؟" فوضع أصبعه على فمه طالبًا مني الالتزام بالصمت.

فعلت ما أشار عليّ به والتزمت الصمت كحكيم فقير.

كنت أسترق بين الفينة والأخرى بعض النظرات إلى القارب، محاولا معرفة ماذا يحدث، أو على الأقل رؤية ما يحدث. أربعة أشخاص، من بينهم رجل أسمر البشرة، هو الآخر يجيد الإسبانية جيّدا، كان يرتدي سروالا فضفاضا كمغني الهيب هوب، و قميصا من القطن ذي قبعة مكتوب عليها outlaw ، كانت هذه بالنسبة لي رسالة سيميائية صريحة أن هؤلاء الفتية لهم قانونهم الخاص، وأن ما يقومون به جائز في قانونهم.

مرّ ما يقارب نصف ساعة والأجنبي يتحدث مع سيمو "النحيف" وكلاهما يدخنان بأنفة وكبرياء. بعد ذلك نادى الأجنبي على رفيقه وطلب منه شيئا بالإسبانية :

" بابلو " هكذا نادى عليه، وأكمل حديثه معه باللغة الإسبانية.

لم يكن بابلو هو ذاك الشخص الذي كتب على قميصه outlaw ، بل كان شخصًا آخر يضع نظارة سوداء على ناصيته، وعلى صدره قلادة كبيرة صفراء اللون. كان يبدو هذا الشخص أصغرهم، وكنت أقرأ في وجهه outlaw ، فقد كانت حركاته ولهجته تدلان أنّ طيش الشباب مازال يسيّطر عليه كليا، ويمنحه ثقة عمياء بالنفس، عكس رئيسه الذي كانت تظهر عليه هيبة مريبة، يتكلم بصوت منخفض، ويجيب ببضع كلمات مع ابتسامة ماكرة لا تفارق شفتيه.

نطّ بابلو على اليخت ثم بدأ ينظر إلينا واحدا واحدا، وحين وصل إلى الفتاتين اتكأ ومرّر يداه على وجه إحداهن، فلم تنبس الفتاة ببنت شفة، التفتَ إلى السيمو وقال له جملة بالإسبانية لم أفهم منها سوى كلمة واحدة guapa والتي تعني جميلة. ثم تخطى الفتاتين ووصل إلى المرأة التي تحتضن ابنها وتغطيه ببساط. التفت مرة أخرى إلى السيمو وسأله بالإسبانية، وحين أجابه، نزع البساط عن الولد، وبقي يتحدث مع المرأة بالإسبانية، والمرأة تطأطئ برأسها كأنها تفهم ما يقول، مرّر يده على الصبي وقال جملة أخرى بالإسبانية ورجع إلى قاربه، ثم أخرج بضعة صناديق ومدّهم إلى الربّان الذي يسوق بنا اليخت، ثم نزل معه إلى صهريج صابورة اليخت وبعد نصف ساعة أعادوا الصناديق إلى القارب.

لم يكن لدي ريب أن ما يحمله الربان من بضاعة في الصناديق إما مخدرات الكوكايين أو القنب الهندي، لكنني كنت أوهم نفسي أن ما في الصناديق شيء آخر، أقول لربما هو سلاح أو آلات تزوير أو أجهزة محظورة، المهم لم يستطع أحد أن يعزب ما تحويه الصناديق، حتى عندما بدأت أتوسل بقليل من الذكاء، وأقيس آمارات وجهه وهو يحمل الصناديق، لأعرف هل تبدو عليه علامات الإرهاق، تبيّن أنه يحملها بشكل مريح ولا يبدو عليه التعب، مما يعني أن ما يحمله ربما هي مخدرات الكوكايين؛ لأنّها خفيفة مقارنة بالأجهزة والغيارات، وحتى مقارنة بالقنب الهندي.

لكن سؤالاً انقشع في ذهني، إذا كانوا يتفاوضون على أمر الكوكايين، لماذا خبّأ السيمو الكوكايين في سترات النجاة، لماذا لم يعطيه إيّاها؟؟ تراه خبّأها عنه!!؟ هذا

سؤال جعلني أعيد كل التّفاصيل التي حدثت معنا على متن اليخت، مع كل هذا لم أجد تفسيرا منطقيا لذلك.

عدّ الأجنبي ذو السُّحنة السمراء البضاعةَ، ودوّن أرقامًا على مذكرة حمراء كان يحملها بين يديه، أما رفيقه الطائش، فقد قفز إلى اليخت مرة أخرى وهو يحمل pizza ثم تقدم بها نحو الأم مع صبيها، وقال لها كلمات بالإسبانية.

قال السيمو للأم مترجما كلامه:
- إنه يقول لك، اعتني بابنك جيدا.
بعدما سمعت الأم من السيمو الترجمة، قالت للأجنبي:
- شكرا، حفظك الله.

ترجم سيمو بدوره كلمات الشكر للأجنبي. وهكذا توادعا، غادر كلّ منهما في قاربه.

بعد أن ابتعد عنّا القارب زهاء خمس عُقد، طلب السيمو من الجميع نزع سترات النجاة، فعلنا ذلك على وجه السرعة، جمعها السيمو، وفتحها أمام أعيننا فإذا هي كما تكهنت مخدرات الكوكايين؛ بعد ذلك طلب الكيسين الملصق على جسدي، ثم حوى كل تلك الأكياس في موضع واحد، ورتّبها في صناديق من البلاستيك.

ربت السيمو على الأكياس، وقال بصوت مرتفع: نحن الوحيدون الذين يعرضون حياتهم للخطر من أجل أن ينعم الناس بالسعادة والدوبامين والإندروفين، الكوكايين حياة سعيدة لكل من ملّ من الحياة التعيسة وملّ من العيش وسط مجتمع منافق وعاهر.

بدأ يضحك وهو يفتح قنينة في حجم كفه من الخمر المعتّق والفوار Liqueur - وهو نوع من أنواع الشمبانيا باهظة الثمن - ثم حشر في أنفه حلقة ذهبية وأحضر صحنًا صغيرا ووضع فيه قليلا من الكوكايين ثم أشعل الولاعة تحت الصحن وبدأ ينشق الكوكايين بواسطة ورقة مالية ملفوفة، بعدها أطلق ضحكات استهزائية، كأنّه يستهزء من حياته ومن العالم كلِه.
يا لها من مفارقة حتما !!

***

أيقظت الأم ابنها، وأعطته شريحة من البيتزا، وناولت الفتاتين شريحتين أيضا، واحتفظت هي بالباقي.

ولأول مرة أسمع صوت أحد الشباب الذي يركبون معنا على متن القارب:

- سيّد سيمو أريد أن أشرب ماء.
ردّ سيمو:
- الماء يحيط بنا وأنت تطلب الماء .
قال ذلك وهو يضحك، ثم ناوله قنينة ماء صغيرة.
عبّ الشاب من القنينة تباعًا، وحين ارتوى، سأله:
متى سنصل سيد سيمو، أخبَرُونا أننا سنصل على الساعة العاشرة.
- الذين أخبروك لا يكذبون.
- إذن لماذا لم نصل بعد ؟؟
- هذا يرجع إلى ذكائك من عدمه !!
- لم أفهم ..
- لو كنت تفهم، لما تركت تلك اللحية على وجهك، ألا تعلم أن أصحاب اللحية مشكوك في أمرهم، يعني هكذا تجري الأمور في البلاد التي تريد أن تذهب إليها؟؟! ألهذه الدرجة استطعت أن تنفق عشرة آلاف درهم مغامرا بحياتك اللعينة، ولم تستطع أن تشتري موس حلاقة بدرهمين حقيرتين؟؟!!

صمت الشاب في ذهول كما لو أنّه اقترف خطأ جسيما سيضر بمستقبله قريبا، أومأ إليه برأسه وسرح بخياله يفكر فيمَ يمكن القيام به لتدارك الأمر.

نطقت الأم موجهة كلامها إلى السيمو:
- هل تريد شريحة من البيتزا؟؟
ردّ السيمو:
- شكرا، أنا لا آكل في العمل، شهيتي تكون مفتوحة فقط حين أنهي عملي بنجاح، لكن لن أردها في وجهك. ثم أخذها منها وتقدم بضع خطوات تجاهي، جلس القرفصاء أمامي وقال:
هل تعرف بمَ كانت مملوءة سترات النجاة ؟؟

- لا أعرف !!
- أعرف أنك كنت تعرف أنها مليئة بالمخدرات، لقد رأيتك وأنت تدعك عليها بيديك، هل تعرف لمَ لمْ ألبس المرأة والفتاتين سترات النجاة؟؟
- لمَ ؟؟
- لأنني كنت أعرف جميع الأحداث التي تقع وستقع على متن اليخت، كنت أعرف أن الفتاتين و المرأة التي تحتضن طفلها، ستثيران غريزة البنوة والأبوة عند هؤلاء الأجانب، سيقتربون منهن بداعي الشفقة والعاطفة المقتولة داخلهم، وفي حالة ما اقتربوا أكثر، ستكون هنالك احتمالية كبيرة أن يكتشفوا أنهن تحملن الكوكايين، وسينقلب كل شيء ضدي، لهذا السبب لم ألبسهن سترات النجاة!!
- نعم، لم أكن أعرف !؟
- أنا أيضا لا أعرف هل تشعر بالجوع أم بالبرد ؟؟
- قليلا
- تقصد قليلا من الجوع أم قليلا من البرد أم كلاهما؟؟
- كلاهما .
- كلاهما بنسبة كم، أريد نسبة مئوية دقيقة ؟؟
- لا أحد يستطيع أن يحدد نسبة مئوية من تلقاء نفسه.
وقف وبدأ يتمشى بتبختر، أغمض عينيه و استنشق الهواء بصوت مسموع وقال:
- أشعر ببطء جزيئات الهواء الناتجة عن انخفاض درجة الحرارة، مما يعني أن الضغط الجوي مرتفع؛ سرعة الريّاح الآن هي ساكن صفر اثنان kn أستطيع تحديد ذلك دونما حاجة إلى الأنيمومتر، كما سيحدث انحراف في حركة الرياح بعد أربعين عقدة، نتيجة اختلاف مناطق الضغط المنخفض ومناطق الضغط المرتفع، التي تعمل وفق معادلة كوريوليس ومعادلة الجيوستروفية.

رفع رأسه إلى السماء وأضاف:
- القمر مكتمل الآن مما يعني أنَّ البحر يشهد جزرا كاملا، ومما يعني أيضا أننا سنصل إلى شاطئ olhão في بداية الجزر غدا على الساعة العاشرة وبضع دقائق.

أنهى كلماته، وتوجه مرة أخرى نحوي، حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى مني، ثم قال لي بصوت منخفض:
- أقول ذلك بنسبة ٩٩٪ !!

ثم ناولني شريحة pizza التي أعطته إيّاها المرأة، وقال لي: إنها باردة قليلاً لكنها ستطفئ قليلا من الجوع.

أخذتها منه وشكرته بخوف، وأنا أتساءل أي شخصية هاته، وأي علوم درسها هذا الرجل؟

أحسست بتعب كبير، وإرهاق نفسي، مع ذلك لم يسرقني النوم، حاولت أن أنام لكن دون جدوى، وخلافا للقارب المطاطي الذي أبحرت فيه سابقا، فنصف من على هذا اليخت يغط في نوم عميق، كأنه يبيت في منزل في قرية هادئة، لست أدري كيف استطاعوا أن يناموا وسط هذه الفوضى العارمة، ألهذه الدرجة وثقوا في السيمو.

أخرج السيمو لوحة الكترونية، وبدأ يستمع إلى أوبرا The Rite of Spring وهو يدندن مع نوتاتها ويعيش مع كل مقطع بكامل جسده وإحساسه؛ يا له من غامضٍ هذا السيمو، كيف له أن يستمع إلى موسيقى من هذا النوع ويعمل في هذا المجال.

شخصية السيمو هذه تذكرني بشخصية هتلر، كان محبًا للفن وللموسيقى لكن في عمله كقائد ورئيس دولة يصبح شخصا آخر عكس الشخص الأول.

الربّان ذو العضلات المفتولة و الوشوم الغريبة على متنه، كان يرتدي قميصا بدون أكمام، لا يشعر لا بالبرد ولا بالجوع ولا بالنعاس، منذ أن انطلقنا من مدينة أصيلة إلى الآن، لم أره قد أكل شيئا ولا غطّ له جفن، فقط نبيذ ونشوق. من أي بشر هذا؟؟

صوت المياه وصوت الموسيقى في وسط البحر يأخذ الإنسان إلى عالم آخر، يسرق خياله إلى حيث السلام والحب والسكينة، أنا أستمع إلى الموسيقى، وأحاول أن أشغل ذاتي بشيء حتى لا أشعر بالبرد؛ أحاول أن أتذكر اسم المكان الذي قال لنا سيمو أنّنا سنصل إليه على الساعة العاشرة. olhão نعم هذا هو اسم المكان الذي قال لنا سيمو، وهو غير المكان الذي أخبرني سي فاروق أننا سنقطع إليه.

استيقظ الطفل ذو الأربعة أعوام، وبدأ يبكي وهو يقول لأمه:

لماذا لم نعد إلى المنزل، أريد أن أذهب إلى المدرسة، ماذا نفعل هنا؟؟
تجيبه:
- لم يبق الكثير، سنذهب إلى المدرسة غدا.
صراخه أيقظ كل من أخذه النوم جرّاء التعب.
شاب في العشرينيات من عمره، يعتمر قبعة من الصَّوف، ويلبس نظارات طبية، يقول للابن محاولا إسكاته:
- ستصل إلى البيت في الصباح، و ستأكل النوتيلا، انظر إنه الليل، الأولاد كلهم ينامون في الليل.
قال له ذلك ولم يفلح في إسكاته.
رمى السيمو السيجار في البحر وتقدم نحو الطفل ثم أمسكه وحمله بين ذراعيه، وبدأ يشير له إلى القمر بسبّابته ويقول:
- أنظر إلى ذاك القمر، أنظر كم هو جميل، هل تريد أن تصعد إليه، أطل النظر إلى الأعلى، لا تنظر إلى الأسفل!!؟

بكلمتين اثنتين استطاع أن يسكت الطفل، وأن يغيّر مزاجه من الرهبة والقلق إلى الهدوء والسكينة.

بدأ الطفل هو الآخر يردد:
القمر جميل ، القمر جميل..

سكت الطفل ورجع الصوت المهيمن هو صوت البحر، انخرطت أنا في دوامة تفكير: أنّى للسيمو أن يعرف كل هاته الأبجديات المختلفة والمتباينة، ما هو تكوينه العلمي وما مستواه الدراسي؟؟.

سيمو وهو يحمل الطفل بين ذراعيه قال له إذا أردت أن تذهب إلى القمر أطل النظر إليه، لا تنظر إلى الأسفل. هي رسالة واضحة لنا جميعنا، أو ربما هي رسالة مخصصة بشكل ما إليّ، يجب أن لا أنظر إلى الأسفل.

في لحظة من اللحظات، سرقتني سِنةٌ من النوم، نمت على متن اليخت بعدما أسكتَ السيمو الصبي، ولم أستيقظ حتى بزوغ الفجر، وجدت الجميع يغط في نوم عميق خلا الفتاتين والسيمو وربان القارب.

أحسست بألم في ظهري، وبتنميل في رجلي وعنقي جراء وضعية النوم غير المريحة، بسطت رجليّ ببطء كي يمر الدّم إلى الشريان المأبضي و الشريان الظنبوبي، اللذين انعدم فيهما اللون تمامًا، وبدأت أميل عنقي يمينًا وشمالا حتى شعرت بقليل من الراحة، حاولت النهوض، لكن صوتًا منعني قائلا:

- ماذا تفعل، اِجلس مكانك.

ليسَ هذا إلاّ صوت السيمو، قلت في داخلي، ألا ينام هذا الشّخص، ثم وجهت له ما مفاده:

- ظهري يؤلمني، أشعر بصداع هنا، ثم أشرت إلى موضع الفقرات القطنية وسط ظهري.
علق قائلاً :
- يبدو أن الدم لا يتدفق بشكل سليم إلى الجزء السفلي من العمود الفقري، فيمنع قيام جسمك عن توصيل القدر الكافي من العناصر المغذية للأقراص الموجودة في ظهرك، مما يسبب لك الألم، كما أنك تعاني من (الجنف) لأن عمودك الفقري يبدو منحنيا للاتجاه الجانبي.
- كيف عرفت ذلك؟؟ بالفعل أنا أعاني من هذا المرض، وأشعر بالصداع لهذا السبب!!
-إذا كنت تشعر بالصداع، لا تشعر الآخرين بالصداع، ورغم أن الوقوف لن يُجدي نفعًا، يمكنك أن تقف قليلا..
وقفت في القلعة الأمامية لليخت، فاقتربت من السيمو الذي كان يجلس على حافة القارب، ويضع كتابًا متوسط الحجم على ركبتيه، تساءلت هل كان يقرأ هذا الكتاب على ضوء القمر، محاولا أن أعرف عنوانه، لكن دون جدوى..!!
التفتُّ إلى ربان اليخت، فإذا هو كما رأيته بادئ الأمر، يحبس نفسه في قمرة القيادة ممسكا بدفة القيادة، ما زال يرتدي نفس اللباس الخفيف، بنفس الملامح المخيفة والشريرة على وجهه، والوشومات الغريبة على جسده، وبنفس البندقية التي تتدلى على بطنه، الفرق بينه وبين السيمو كبير ومتباين جدا؛ السيمو يبدو بريئا ودائم الابتسام ويبدو أيضا أكثر معرفة وحكمة منه.

بعد ساعات، استيقظ الجميع، بما فيهم الصبي ذو الأربعة أعوام، نظر السيمو إلى ساعته الذهبية، وطلب من الربان أن يوقف اليخت، هذه المرة نادى عليه باسمه:

- عبد الجبار ، أوقف القارب من فضلك !! ثم أكمل حديثه:
- أمامنا خمسةٌ وعشرونَ دقيقة لنتناول فطورنا بكل راحة.

استغرب الجميع من تصرّف هذا الأحمق. نحن في وسطِ بحر لا نعرف شمالَه من جنوبِه، وفي أي وقت يمكن أن ينقلب المناخ ويتغير الطقس مثلما حدث معنا في السابق، وهذا المجنون يقول لنا سنأخذ خمسةً وعشرين دقيقة لتناول الفطور، وكأننا في نزهة أو في رحلة استجمام!! لم أستطيع أن أفهم ما يحدث؛ لأننا مذ أبحرنا من مدينة أصيلة لم نتوقف إلا مرةً واحدة، ليست من أجل تناول الغذاء أو العشاء؛ بل من أجل أولئك الفتية الذين ملأوا الصناديق بالكوكايين. هذا فقط؛ أسقط على رأسي كومة من الأسئلة المحيّرة. لمَ فعل السيمو ذلك؟؟
أخرج السيمو كيسًا ممتلئا عن آخره بالتّمر، وفرّقه على الجميع بالتساوي، منحني خمس تمرات، أخذت واحدة وأكلتها، فقال لي:

- كن متحضرًا قليلا، اِغسل وجهك أولا!!

أي برودة وكبرياء وغرور يتملّك هذا الرجل، ابتلعت إهانته، وغسلت وجهي بماء البحر كي أكون متحضرًا، وكذلك فعل البقية اتقاءً لنفس الإهانة.

عبدالجبار، الذي يحمل من اسمه الكثير من التجبر، المتّقد من عينيه، بدأ يتحدث مع السيمو بصوت خفي لم تستطع أذني أن تسمعه، بعد هنيهات، فتح السيمو قنينة زجاجية وصب بعضًا من القهوة، تركتْ رائحة قوية على متن اليخت، ثم ناول عبدالجبار كوبًا ومضى قرب دفة القيادة. بدأ السيمو يرشف القهوة و يقرأ فقرات من الكتاب الذي كنت قد رأيته يحمله قبل ساعات، الآن أستطيع أن أقرأ عنوان الكتاب "about music" لنيتشه وبدأت أفهم معها شخصية السيمو وتصرفاته، وأفطن أنّى له بهذا التفكير القيادي البارد، كان السيمو يعبُّ من الكأس ويقرأ ويستمع إلى موسيقاه المفضلة في آن واحد، وكأنه يجلس في شرفة فندق النوفوتيل المطلّ على نهر السين وبرج إيفل. مرت نحو ربع ساعة، أغلق الكتاب، وأخرج سيجار كوهيبا cohiba الكوبي، وبدأ ينشق بثقة جامحة بنفس الطريقة التي كان ينشق بها كاسترو سيجاره وهو يلقي خطابا ثوريًّا يذمّ فيه الرأسمالية والدول التي تتبنى هذا النظام. هذا السيمو غامض جدا، عالَم قائم بنفسه، كل حركة يقوم بها أو

جملة يتفوه بها تذكرني بشخصية عظيمة مرت في التّاريخ. بعد عشرين دقيقة تقريبا، نظر السيمو إلى ساعته، وأمر عبد الجبار، بأن يشغّل المحرك.

وبعدها بخمسِ دقائقَ انطلقَ اليخت من جديد، مرت نصف ساعة فقال لنا بصوت جهوري:

- أنتم دفعتم أموالكم، منكم من عمل عليها قسطا بقسط، ومنكم من أخذها من والديه، ومنكم من سرقها، وطبعا ليس منكم من أخذها كسلف!!

لم ندري ماهي مناسبة هذا الكلام، أو بالأحرى هذا الخطاب. استأنف حديثه قائلا:
- هل تعرفون لمَ توقفنا خمسةً وعشرين دقيقة وسط البحر ؟؟ ثم توجه إلى ذاك الشاب الملتحي وسأله:
- هل تعرف السبب ؟؟
أجاب الملتحي:
- من أجل أن نتناول الفطور .
ابتسم السيمو بهزْءٍ وقال كمعلم ينتظر من تلامذته حلّ معادلة:
- هل هناك جواب آخر ؟؟
لم أشعر بنفسي حتى قلت له:
- السبب ليس تناول الفطور، هناك سبب معقول وراء التوقف، لأننا لم نتوقف البارحة لا في وقت الفطور ولا في وقت الغذاء!!
ردّ السيمو:
- لم تجب على السؤال؟؟ ثم أكمل مفسرًا:
- السبب هو أننا لو لم نتوقف تلك المدة بالضبط، كانت ستذهب أموالكم التي دفعتموها في مهب الريح؛ لو لم نتوقف وواصلنا الطريق بعد ثلاثين عقدة بحرية، كنّا سنلتقي مباشرة مع باخرة Wagenborg القادمة من الجزائر والتي ستمر من سواحل البرتغال. هل تعرفون ماذا يعني هذا؟! هذا يعني أن شركة قوية كشركة Wagenborg ستخبر البحرية البرتغالية؛ هل تعرفون ماذا يعني ذلك؟! هذا يعني أن أموالكم كانت ستذهب سدىً!!

بدأ الجميع يشكره، فكان تعقيبه:
هذا عملي وأنا سعيد به، بعد أقل من ساعتين ونصف ستصلون بسلام.

استبشر الجميع وراح كل شخص يتكلم مع قريبه، وعمّت فوضى طفيفة، بعدما كان يملأ اليخت جو النفور والخوف، شعر الجميع بالأمان وفقدوا حسّ التّفكير، بينما أنا كنت أفكر، لمَ تراه قال "كانت أموالكم ستذهب سدى" واستثنى نفسه، ألم يكن يخاف على نفسه أيضا، خصوصا أنّه يحمل في يخته كمية كبيرة من المخدرات، ثم لمَ ذكر البحرية خاصة البرتغال؟؟

عم على القارب نوع من الضجيج، فقد باتت تظهر جبال على الشط أمامنا، والكل تغمره فرحة النجاة من الموت، والفرار من جحيم الوطن العاق لأبنائه، وبما أنّ السيمو شخص يقدّس الهدوء، ويحبُ الصمت كثيرا، فقد قام يخطب بصوت أقرب للهمس:

- لو سمحتم، لا داعي للفرح فأنتم لم تصلوا بعد، أنتم ما تزالون في عرضة البحر. على بعد ثلاثَ عشرةَ عقدةً بحرية يوجد مركز البحرية، وفي أي لحظة قد تلتقطكم الرادارات، معنى هذا الكلام غير الجيّد، أنهم سيرسلون باخرتهم السريعة تجاهكم، وسيقلونكم عليها مباشرة إلى مخفر الشرطة ومنها إلى المحكمة وبعدها إلى الحدود ثم إلى طنجة ومنها أخيرا إلى ما كنتم عليه دون نتيجة، وإن شئتم اسألوا هذا الولد الهادئ ثم أشار إليَّ وأضاف: لذا سادتي الأعزاء التزموا الصمت من فضلكم..

التزم الجميعُ الصمتَ على حين غرة، خلا الصوت الذي بداخلي، أتساءل فقط، لمَ تراه يتحدّث عنا ويستثني نفسه دائما!! كنت على يقين تام أنّه قد خطب هذا الخطاب ليعم الهدوء لا غير. وبالفعل فقد كانت هذه الطريقة الترهيبية ناجعة أعطت نتيجتها على الفور. ففى نهاية المطاف، لا أحد يريد أن يعقب إلى المغرب؛ إلى نفس المعاناة.

مر ما يقارب الساعة ونحن نشاهد الضفة دون أن نصل إليها وكأننا لم نبرح مكاننا؛
سألت المرأة السيمو وهى تحتضن ولدها: لماذا لا نزال في مكاننا؟؟
عبس فى وجهها للحظة؛ ثم أطلق ضحكات بصوت مسموع ثم سألها:
- هل سبق أن سمعت بلعنة المحيط الأطلسي؟؟
احمّر وجه المرأة وغلبها الخجل؛ ولم تكد تستطع أن تنبس بكلمة؛ فقط طأطأت وجهها وسكتت.
التفتَ إليّ السيمو وقال لي:

- اِحكِ لها ماذا وقع لكم في المحيط الأطلسي، لتعرف كم هي محظوظة.
ثم جلس القرفصاء قاب وجه المرأة، وأخذ يسرّح أناملَه على رأس الصبي؛ وهو يقول للمرأة بصوته المعهود:
الإنسان البالغ يستطيع سماع الصوت من ٢٠ هيرتز إلى ٢٠٠٠٠ هيرتز؛ وكلما زادت السرعة التى يهتز بها الجسم ارتفع تردده؛ ومع تزايد التردد يتناقص الطول الموجي؛ وأنا بالضبط أتحدث بصوت يبلغ ١٢٣ هيرتز. هذا يعنى أن صوتي يمكن أن يسمعه كل من على اليخت بشكل واضح ومفهوم للغاية.

قال ذلك وهو يبعد أصابعه من على رأس الصبي بلطف ثم سأل المرأة مجددا:
هل فهمت؟؟

أشارت المرأة برأسها بأنها لم تفهم أي شيء!!
فأجاب مكانها: أعتقد أنك سمعت قبل قليل أنني قلت سنصل قبل ساعتين ونص؛ ألم تسمعي ذلك أم أنه فقدان ذاكرة أم هو الوجل فقط؟!
ردت بنبرة حزينة: نعم سيدي، أتذكر ذلك جيدا.
أعقب السيمو: أنا أتفهمكم جيّدا، وأعلم أن نسبية إينشتاين تعمل عليكم جيدا، وأن القشرة المخية الأنفية الجانبية LEC هي المسؤولة عن اعتقادكم أن الوقت يمر بطيئا جدا؛ لأنكم تفكرون فقط متى ستصلون، وهذا في حد ذاته، يجعلكم تشعرون بأن الوقت يمر ببطء. لهذا أنصحكم حاولوا أن لا تفكروا في الوقت؛ لأنه لن يمر سريعا، وربما يتباطؤُ أكثر مما تظنون.

ثم تقدم السيمو إلى قمرة القيادة وأمر عبدالجبار بنزع السلاح وبعدها توجه إلى مقدمة اليخت وأخرج هاتفه وبدأ يتحدث بالإسبانية مع أحدهم على الهاتف.

بعد تينك الساعتين التي مرّتا أبطأ مما كنا نتصور، ظهرت أمامنا جزيرتان كبيرتان، فعبرنا المضيق بينهما وأبحرنا شرقا في اتجاه وادٍ كبير حتى وصلنا إلى نهايته، كانت تنتظرنا أربع سيارات بعلامات ترقيم برتغالية من نوع Benz G Class-Mercedes وسيارة كبيرة من نوع Ford Transit Custom . نزلنا من على اليخت بمساعدة أصحاب السيارات، ثم صعد سبعة أشخاص منا إلى سيارة FTC وبقينا نحن أربعة أشخاص نساعدهم في نقل المخدرات من صهاريج صابورة اليخت إلى السيارات، كنا ننقل مخدرات الحشيش التي تحتوي على ختم مغربي إلى صناديق السيارات الخلفية وتحت المقاعد بشكل منظم جدا، استغرق

الوقت زهاء ربع ساعة ونحن ننقل البضاعة إلى السيارات دون أي عجلة أو ضجيج أو ارتباك. لم أكن أتخيل أبدا أن اليخت كان يحمل كل هاته المخدرات التي أقدرها تقريبا بما ينوف عن طنين من الحشيش كلها بختم مغربي.

حين أنهينا نقل البضاعة، طلب مني السيمو أن أصعد معه على متن السيارة في حين صعد الثلاثة الآخرون على متن السيارات الأخرى، ثم أخَذَتْ كل سيارة طريقا مختلفا، أما عبدالجبار فصعد إلى اليخت وعاد به من حيث جئنا.

قال لي سيمو وهو يقود السيارة: مرحبا بك في البرتغال!!
قلت بدهشة واستغراب : ماذا قلت ؟ البرتغال!!
قال: نعم نحن في البرتغال، أنت تريد الوصول إلى أوروبا، ها أنت ذا في أوروبا.
قلت: ولكننا لم نتفق على هذا؟؟
ابتسم ابتسامته الماكرة وقال ببرودة دم: هل اتفقت معي أنا؟
قلت بحسرة: لا، ولكن ..
قاطعني: ولكن ماذا؟؟ دعني أذكرك أنك لم تدفع درهما حقيرا.
قلت: ولكن دفعت ثمن حياتي، إذ شاركت معكم في تهريب المخدرات.
قال: أي حياة تتحدث عنها، هل تريد فعلا أن تذهب إلى إسبانيا؟؟
قلت: أريد أن أدخل إلى فرنسا ومنها إلى ألمانيا.
قال: لنفترض أنك الآن في إسبانيا، ماذا ستفعل؟ و كيف ستصل إلى ألمانيا؟ ثم أضاف: إذا قبضت عليك الشرطة الإسبانية ستعيدك مرة أخرى إلى المغرب، على الأقل أنت هنا في مأمن من التَّرحيل، يمكنك العمل والعيش في البرتغال دون أي مشكل.
أعقبت: هل كان الجميع يعلم بأننا سنبحر إلى البرتغال؟
أجاب: لا.
قلت: إذن لماذا كذبتم عليهم؟ و لماذا جعلتهم يبحرون معك، أكيد ليس من أجل المال؟!.
قال بهزء: أنت لست غبيا إلى هذه الدرجة، إنهم حصان طروادة لا غير، تهمة تهريب البشر ليست هي تهمة تهريب المخدرات.
قلت: كيف؟؟
قال: لا تسأل كيف، المهم أنهم سيصلون إلى إسبانيا في هذا اليوم وسيتناولون الغذاء في أرض أجدادهم كما أخبرتهم على متن القارب؟؟
قلت: هل ستذهبون إلى إسبانيا؟

قال: هذا ليس من شأنك، أخبرني الآن هل تريد أن تبقى هنا أم تريد أن تذهب إلى إسبانيا.
قلت: هل ستذهبون عند عبدو؟؟
قال: من يكون عبدو هذا ؟
قلت: عبدو marbella
قال: لا أعرف أي شخص بهذا الاسم !!
قلت: إلى أي مدينة ستتجهون.

وضع السيمو نظارته على عينيه وقال: هذا أيضا ليس من شأنك، أخبرني الآن هل تريد أن تدخل إلى إسبانيا أم لا، أمامك نصف ساعة فقط لتفكر.

فكّرت على نحو سريع وقلت: أريد أن أدخل إلى إسبانيا ..

نظر إليّ باستهزاء وقال: الأحق أن تقول تريد أن تذهب إلى طنجة.
سألته: هل تعرف أي شخص يمكنه أن يدخلني إلى فرنسا.
أجاب: نعم، لكن ليس لديك المال.
قلت: إذن ماهو الحل في نظرك.
قال: الحل هو أن تبقى في البرتغال، يمكنك أن تعمل هنا، وبعد أن تحصل على المال، ستجد حتما من يدخلك إلى فرنسا، كل شيء في العالم مرتبط بالمال والمادة، خصوصًا أوروبا، إيّاك أن تصدق المسلسل الذي يصور أوروبا في صورة (البلد الذي يرعى القيم الأخلاقية الكونية والإنسانية) إن أوروبا هي المختبر الذي اكتشف فيه داروين أن الإنسان حيوان كامل؛ ع هذا جيّدًا.

أضاف: لم يبقَ أمامك وقت كثير لتقرر، نحن نقترب من الحدود البرتغالية!!
قلت: سأدخل إلى إسبانيا.
قال: بعد أقل من عشرين دقيقة سندخل إلى الأراضي الإسبانية.

صمتُّ برهة وأنا أفكر فيما يمكن أن يحدث بعد أن تطأ رجلي أرض إسبانيا مجددا، لم أكن أفكر البتة فيما يمكن أن يحدث لي بمعية سيمو، فقد كنت أثق فيه ثقة عمياء و أشعر معه بمنتهى الأمان، علما أننا كنا نحمل معنا حتفنا على متن السيارة.

أزاح السيمو النظارة من على عينيه وأشعل أغنية إسبانية وقال لي: لا يفصلنا عن إسبانيا سوى هذه القنطرة، ثم أشار بيديه إليها وبدأ يغني مع الأغنية إلى أن تخطينا القنطرة دون أن يوقفنا أحد.

بعد نصف ساعة على عبورنا القنطرة، توقف السيمو قرب إحدى مراكز التسوّق، ثم منحني مئة وخمسين يورو وقال لي: اشترِ ما تأكله ثم خذ حافلة DAMAS ستقلك إلى مدينة تسمى HUELVA في هذه المدينة ستجد هناك المغاربة بكثرة، جلهم يعملون في الفلاحة بدون أوراق، ابحث عن عمل معهم وبعد أن تحصل على المال ستجد من يدخلك إلى فرنسا بكل تأكيد وبعدها خذ القطار إلى ألمانيا مباشرة.

نزلت من السيارة على مضض، فقد كنت أنتظر منه أن يقول لي، إذا شئت يمكنك أن تبقى معي، لكنه كان حازما في كلامه ومُصرًّا على أن أنزل في هذا المكان.

غادر السيمو بسيارته التي لاحظت أن لوحة الترقيم خاصتها أصبحت إسبانية، ثم ترك فراغا كبيرا داخلي، فعلى الأقل كنت أشعر مع السيمو بأمان وها أنا الآن أفترق عنه ليعود إليّ الشعور بالحيرة والاغتراب.

لم أكن أعرف ما مصير البقية، هل تراهم دخلوا إلى إسبانيا مثلي أم أنهم لا يزالون في البرتغال، أم أنهم سيدخلون إلى دولة أخرى، ففي الأخير لم أفطن ما كان يقصد السيمو بحصان طروادة.

جلستُ على قارعة الطريق متجردًا من الخوف ومن التَّرحيل وصرخت من الداخل بأعلى صوت ثم أنشدت بصوتٍ رخيم:

هكذا عَبرنا الماضي حبوًا دون قوائم

معاناةٌ غير مسموعة

تَحجُّ من كلّ حدبٍ وصوب

القيّم أكلهَا الذئب بشهادة النبي يوسف

الإنسان ماتَ وبقي الدولار حيًّا

جبٌّ طافحٌ بالرماد

غَرقٌ بدون ماء

أمواجٌ بدون بحر

قوانين مثالية مكتوبة على قطعة ثلج في أرضٍ رمضاء

مناجاة الوطن الذي تخلى عن أبنائه

لم يبقَ هنالكَ من وطن... سُرقَ من قِـبَـلِ أبناء أرضنا

قتلٌ وتعذيبٌ ثم موتٌ ثم حياة

جثث أكلها السّمك وأخرى أكلها الفقر

جثمان مجهولة في كلّ الربوع؛ جَهلٌ وجَهالةٌ وتجهيل

فَراعلُ من الضباع ستصبحُ ضباعًا برتبة ملازم

دفنّوا المستقبل وشيّعوا جثمان الحاضر

الآباء، كانوا آباءً

أفعالٌ ناقصةٌ فمضمرةٌ فمحذوفةٌ فمنعدمةٌ في العدم

الخليفة أَخْلَفَ وتَخَلّفَ وخلَّفَ فتاتًا وذئابًا تحرس القطعان الجائعة

الخليفة في الدائرة رقم تسعة؛ حيث جيريوني يقبع مع خلّانه في جحيم دانتي

الأرض لزيوس

الوطن للكهنة والنبلاء

الجوع والحرب للأقنان

الأقنان للأسماك

الأسماك للنبلاء والكهنة

لقد أكلوا أجسادنا يا زيوس.

انتهى الجزء الأول ب تورينو إيطاليا

٢٠٢٠/٦/١٢